روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
مزى جدا !!

د. نبيل فاروق

الأعماق

138

www.helmelarab.net

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

ملف المستقبل

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرِّية مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل . د. نبيل فاروق

١ ـ الصدمة ..

تألَّقت مياه البحر الأبيض المتوسِّط ، على نحو بديع خلاَّب ، مع انعكاس الأضواء الأخيرة لقرص الشمس ، الذى اصطبغ بمزيج مبهر ، من اللونين الأحمر والأصفر ، وهو يغوص ويذوب فى الأفق ، معلنًا نهاية يوم آخر ، من الأيام الأخيرة للعقد الأوَّل ، من القرن الحادى والعشرين . ومن بعيد ، راحت الغيوم الداكنة تسبح فى السماء ، وقد اصطبغت أطرافها بذلك المزيج الضوئى نفسه ، حتى لقد بدا المشهد كله أشبه بلوحة مبهرة ، من صنع الخالق (عزَّ وجلَّ) .

لوحة لم يتمتع بمرآها طاقم الغوَّاصة النووية المصرية (ب . ن ـ ١٠٣) ، التى راحت تشق طريقها ، على عمق ثلاثمائة متر ، فى دورة تفقُّدية تقليدية ، وقبطانها يراجع خرائطه الملاحية ، ويناقش مساره مع مهندسها الأوَّل ، على نحو هادئ يوحى بأن كل شىء يسير على ما يرام ..

ومع غروب الشمس ، وانتشار ظلمة الليل ، واستعداد القمر للبزوغ ، استعدَّت (ب . ن - ١٠٣) للعودة إلى قاعدتها ، فشدَّ قبطانها قامته ، فى وقفة عسكرية حازمة ، وهو يقول عبر جهاز الاتصال الداخلى فى حزم :

- استعدوا للدوران بدرجة ثلاثين .

استعد الطاقم كله لرحلة العودة التقليدية ، بعد أن انطلقت الغوَّاصة لخمس ساعات كاملة ، على حدود المياه الإقليمية المصرية(*) ، و ..

« جسم غريب فى الجوار .. »

أطلق المراقب العبارة فى توتر شديد ، عبر جهاز الاتصال ، وعلى نحو جعل القبطان يعقد حاجبيه فى قلق ، وهو يتساءل فى حذر :

(★) المياه الإقليمية : يطلق عليها القانون الدولى العام اسم (البحر الإقليمى) ، أى الجزء من البحر ، المجاور لإقليم الدولة ، وتمتدُّ إليه سيادتها ، ولا يختلف فى وضعه عن أى جزء آخر من إقليم الدولة ، ولكن يسمح فيه بمرور السفن ، التى لا تضر بسلامة أو أمن أنظمة الدولة .

- جسم غريب ؟! وما الذى تقصده بعبارة (جسم غريب) هذه ؟! حدِّد هويته .

أتاه صوت المراقب ، وهو يجيب ، فى توتر أكثر :

- هذا غير ممكن يا سيِّدى .

هتف القبطان فى حدة :

- أى قول سخيف هذا ؟! كل المركبات البحرية يمكن تحديد هويتها ، على نحو أو آخر .. أهى غوَّاصة معادية ، أم طراد بحرى ، أم ....

قاطعه المراقب ، فى سابقة غير تقليدية ، ولا تتفق مع أدنى القواعد والنظم العسكرية ، وهو يقول بلهجة عجيبة ، تحوَّلت من التوتر إلى العصبية ، مع لمحة من الذعر :

- كلاَّ يا سيِّدى .. إنه جسم غير معروف ، ولم نر له مثيلاً قط ، فهو يتحرَّك تحت الماء ، بسرعة ثمانين عقدة بحرية(*) ، ويتجه نحونا مباشرة .

(★) العقدة البحرية : وحدة سرعة بحرية ، تساوى (ميل بحرى/ساعة) ، والميل البحرى يساوى وحدة قياس بحرية مقدارها (١٨٥٢) مترًا تقريبًا .

اتسعت عينا المهندس الأوّل عن آخرهما ، وهو يغمغم :

ـ ثمانون عقدة بحرية ؟!! مستحيل ! لا شىء يمكنه السير بهذه السرعة تحت الماء ؟! حتى أحدث الغواصات النووية وأقواها !!

أما القبطان ، فقد انعقد حاجباه بشدة ، وهو يميل نحو جهاز الاتصال ، ويسأل المراقب فى قلق :

ـ أأنت واثق من أنه لا يوجد أى خطأ فى جهاز (السونار)(*) .

أجابه الرجل ، وقد بلغت عصبيته وانفعالاته حدًّا مخيفًا :

ـ كلاً .. لا يوجد أدنى خطأ ، وذلك الجسم ما زال يتجه نحونا مباشرة ، دون أن يخفّف من سرعته .

استوعب القبطان الأمر هذه المرة ، وهتف فى سرعة :

(*) السونار : جهاز يشبه الرادار ، ولكنه يستخدم الموجات الصوتية بدلاً من الموجات اللاسلكية ، حيث يرسل الصوت على فترات منتظمة ، ثم يقيس الزمن الذى يستغرقه انعكاسه ، ومن هنا يتم تحديد المسافة ، وسرعة أى جسم متحرّك ، واتجاهه .

ـ أديروا الدفة أربع درجات إلى اليسار .. أسرعوا .

وقبل حتى أن يكتمل نداءه ، كان البحارة يسرعون لتنفيذ الأمر ، وبدأت عملية تعديل الاتجاه ، ولكن المراقب هتف فى ارتياع بلغ مداه هذه المرة :

ـ الجسم يحافظ على سرعته ، ويقترب أكثر ... وأكثر ... وأكثر .. يا إلهى ! يا إلهى !

صاح المهندس الأوّل ، وقد انتقل إليه انفعال المراقب :

ـ أسرعوا باللّه عليكم .. أسرعوا .

ولكن يبدو أن ذلك الجسم المجهول كان يتحرّك بسرعة مخيفة بالفعل .. فمع آخر حروف صيحة المهندس الأوّل ، حدث الاصطدام ..

ودوى انفجار فى قاع البحر ..

انفجار قوى ، أرسل موجات عنيفة ، عبر مياه البحر ، لثلاثين كيلومترًا دفعة واحدة ..

ثم انتهى كل شىء دفعة واحدة ..

وراحت (ب . ن ـ ١٠٣) تغوص ..

وتغوص ..

وتغوص ..

حتى الأعماق ..

* * *

« لست أفهم هذا أبدًا .. »

نطق رئيس الجمهورية العبارة ، فى حيرة حقيقية ، وهو يرفع عينيه عن الورقة التى يمسك بها ، إلى مستشاره الأمنى الخاص ، السيِّد (أمجد صبحى) ، الذى شدّ قامته ، وهو يسأل فى هدوء :

ـ وما الذى لا تفهمه بالضبط يا سيادة الرئيس ؟!

ألقى الرئيس الورقة على سطح مكتبه ، قائلاً :

ـ استقالتك هذه .

صمت (أمجد) لحظة ، قبل أن يجيب فى هدوء حازم :

ـ أعتقد أنها جاءت فى وقت مناسب تمامًا يا سيادة الرئيس .

مال الرئيس نحوه ، متسائلاً :

ـ ولماذا تعتقد هذا ؟!

صمت (أمجد) فترة أطول هذه المرة ، قبل أن يجيب فى حزم أكثر :

ـ الأحداث تؤكِّد أن الحياة من حولى تتغيَّر ، ولم تعد تناسب ما اعتدته من أسلوب ، ومن الضرورى أن ينزاح من هو مثلى جانبًا ، ليفسح المجال أمام الجيل الجديد ، بأساليبه ، وتكنولوجياته ، ومخاطره ، التى يبدو أنها تتطوَّر مع تطوّر ما حولها أيضًا .

تطلَّع إليه الرئيس بضع لحظات ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويلوِّح بيده ، قائلاً فى حزم مماثل :

ـ بالنسبة لى ، ولكل الخبراء هنا ، فأنت تبدو مثاليًا كمستشار أمنى ، وحتى فى تلك العمليات الأخيرة ، التى شاركت فيها فريقِ المخابرات العلمية ، أثبتت الأحداث أنك ما زلت مقاتلاً صنديدًا ، لا يشقّ لك غبار .

تردد (أمجد) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ولكن هذه العمليات نفسها ، أثبتت أن الجيل الجديد قادر وحده على إدارة الأمور برمتها ، دون الحاجة لتدخلنا نحن .

مرة أخرى ، تطلّع إليه الرئيس ، قبل أن يسأله :

ـ ماذا يدور فى أعماقك بالضبط يا (أمجد) ؟!

لوّح (أمجد) بيده ، قائلاً :

ـ بل ما الذى يمكن أن أقدّمه بالضبط يا سيادة الرئيس ؟! هذا هتو السؤال الحقيقى .. فى العملية الأخيرة ، لم يكن لى دور يذكر .

ارتفع حاجبا الرئيس ، وهو يهتف :

ـ لم يكن لك ماذا ؟! لقد جازفت بحياتك ، وهبطت بمظلتك فى منطقة أحراش رهيبة ، يخشى الآلاف مجرد الاقتراب منها ، وواجهت هناك أهوالاً ، ثم تدخّلت فى اللحظة المناسبة(*) .. ألا يبدو لك كل هذا دورًا يُذكر ؟!

(*) راجع قصة (الشر) .. المغامرة رقم ١٣٧

هزّ (أمجد) كتفيه ، قائلاً :

ـ عندما وصلت إلى (نور) وفريقه ، كان هو قد حلّ اللغز بالفعل ، وربما لو ...

قاطعه الرئيس فى استنكار :

ـ ربما ؟!

ثم نهض من خلف مكتبه ، ودار حوله ، ليضع يده على كتف (أمجد) فى مودّة ، وهو يسأله :

ـ دعك من هذه المحاولة غير المقنعة ، وأخبرنى .. ما السبب الحقيقي لطلبك الاستقالة ؟!

صمت (أمجد) بضع لحظات ، قبل أن يجيب ، قائلاً :

ـ الواقع يا سيدى الرئيس أننى لم أعد أحتمل الاستمرار .

سأله الرئيس فى تعاطف :

ـ ولماذا ؟!

انطلقت تنهيدة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدر (أمجد) ، وهو يجيب :

ـ الإرهاق .. كل ذرة فى كيانى تشعر بإرهاق وإجهاد لا حدود لهما .

ربَّت الرئيس على كتفه ، قائلاً :

ـ هذا أمر طبيعى يا (أمجد) ، فرجل مثلك ، قضى ما يقرب من نصف قرن فى نشاط مستمر ، وواجه كل هذه المخاطر ، وكل هؤلاء الأعداء لابد وأن يشعر يومًا بالإجهاد والإرهاق ، حتى ولو كان أقوى رجل فى العالم .. ناهيك عن الضغوط النفسية العنيفة ، التى تعرَّضت لها ، مع مصرع والدك فى شبابك ، وفقدانك لولدك ، وحبيبتك ، وأخلص وأقرب أصدقائك .. صدقنى يا (أمجد) ، أنا أشعر كثيرًا بما تعانيه ، ولكن الحل لا يكمن فى الاستقالة والاعتزال .

استدار (أمجد) يتطلَّع إليه ، فتابع الرئيس بابتسامة هادئة :

ـ بل فى إجازة .. إجازة تستعيد خلالها نشاطك ، وتريح ذهنك ، وتسترجع أحداث حياتك ، وتتخذ قرارك فى هدوء وروية ، ودون ضغوط نفسية أو جسمانية .

سأله (أمجد) فى حزم :

ـ وماذا لو عدت من الإجازة أكثر إصرارًا على الاستقالة ؟!

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

ـ عندئذ سأوقِّعها خلال ثانية واحدة .

مع آخر حروف كلماته ، انبعث أزيز تلك الآلة الخاصة على مكتب الرئيس ، والتى تنقل إليه تقارير الأخبار العاجلة ، الواردة من كل الأجهزة الأمنية فى (مصر) ، فتحرَّك (أمجد) بحركة آلية ، ليلتقط التقرير الوارد ، ولكن الرئيس أمسك معصمه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ مهلاً .. أنت فى إجازة الآن .

ثم استدار يلتقط التقرير بنفسه ، مستطردًا :

- هيا .. اذهب وابحث عن زى خفيف ، يناسب الاسترخاء على شاطئ البحر ، فى فيلتك فى الـ ...

بتر الرئيس عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقرأ ذلك التقرير ، مما جعل (أمجد) يتجه إليه ، قائلاً فى توتر :

- ماذا هناك ؟!

رفع الرئيس إليه عينيه ، وهو يقول بوجه وصوت شاحبين :

- كارثة يا (أمجد) .. كارثة .

وكان هذا يعنى أن فكرة الإجازة قد تبخَّرت .. تمامًا ..

* * *

التقط المقدَّم (نور الدين محمود) ، نفسًا عميقًا ، وهو يهبط داخل تلك الأسطوانة الشفافة ، المضاءة بضوء بنفسجى هادئ ، وارتسم الحزم على كل ذرة

من ملامحه ، وهو يشدّ قامته ، فى وقفة عسكرية ثابتة ، قبل أن تبلغ به الأسطوانة ذلك الطابق تحت الأرضى ، حيث مكتب القائد الأعلى ، الذى استقبله فى اهتمام بالغ ، قائلاً :

- مرحبًا يا (نور) .. أعلم أنك لم تنعم بالراحة الكافية بعد ، منذ عودتك من عملية (إصبع الشيطان) ، ولكن يبدو أن القدر يرفض منحك وفريقك أية مهلة للراحة ، أو التقاط الأنفاس .

سأله (نور) فى اهتمام :

- ماذا حدث هذه المرة يا سيِّدى ؟!

زفر القائد الأعلى ، وهزَّ رأسه ، مجيبًا :

- كارثة يا (نور) .

ردَّد (نور) فى دهشة متوترة :

- كارثة ؟!

أشار القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

- وبكل المقاييس أيها المقدَّم .

قالها ، وضغط زرًا على مكتبه ، فظهرت على الشاشة صورة للغوّاصة النووية (ب . ن ـ ١٠٣) ، وتطلّع إليها (نور) فى اهتمام ، والقائد الأعلى يقول :

ـ ما تراه أمامك هو صورة لأحدث غوّاصة نووية انضمّت إلى أسطولنا يا (نور) ، ولقد بدأت فى القيام بالجولات التفقدية لحدود مياهنا الإقليمية ، منذ شهر واحد .. واليوم ، ومنذ أربع ساعات فحسب ، كانت تقوم بإحدى جولاتها هذه ، عندما تعرَّضت لحادث رهيب .

غمغم (نور) فى حذر :

ـ أى نوع من الحوادث ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لا أحد يدرى يا (نور) .. لقد كانت ترسل إشاراتها على نحو منتظم ، حتى بدأت الغوص إلى عمق ثلاثمائة متر ، لتفقُّد الأعماق ، ثم لم نتلقَّ منها أية اتصالات بعدها ، ولم تعد إلى القاعدة البحرية ، أو تُرسل حتى إشارة استغاثة واحدة .

التقى حاجبا (نور) ، وهو يعتصر عقله ، محاولاً البحث عن تفسير ، فى حين تابع القائد الأعلى بنفس التوتر ، الذى بدأ به حديثه :

ـ عندما مرَّت ساعة على موعد العودة المنتظر ، ووفقًا للإجراءات الأمنية ، بدأت عملية البحث عن (ب . ن ـ ١٠٣) ، بكل الوسائل الممكنة ، وأهمها القمر الصناعى الجيولوجى ، الذى يمكنه رصد وجودها تحت قاع البحر .

تساءل (نور) ، فى حذر أكثر :

ـ وهل تم العثور عليها ؟!

التقط القائد الأعلى نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. القمر الصناعى الجيولوجى عثر عليها ، على عمق ألف ومائتى متر ، تحت سطح البحر ، ومقصورتاها ، الأولى والثانية محطمتان بعنف ، كما لو أنها قد ارتطمت بقاع صخرى صلب ، وبسرعة كبيرة للغاية .

قال (نور) فى توتر :

- قاع صخرى ؟! حسب معلوماتى المحدودة ، لايوجد قاع صخرى ، فى معظم مناطق البحر المتوسّط ، وبالذات تلك التى لها هذا العمق .

تنهّد القائد الأعلى ، وهو يومئ برأسه ، قائلاً :

- هذا صحيح .

ثم لوّح بيده ، مضيفًا :

- وهذا ما يثير قلق وحيرة الجميع ، خاصة وأن القمر الصناعى الجيولوجى لم يرصد أية أجسام صلبة أو صخرية ، فى منطقة نصف قطرها ثلاثة أميال بحرية(*) ، حول موقع غرق الغوّاصة .

بدا التفكير على وجه (نور) ، وهو يشير بسبّابته ، قائلاً :

(*) الميل البحرى = وحدة قياس بحرية ، مقدارها (١٨٥٢) مترًا تقريبًا .

- لو استبعدنا احتمال ارتطامها بالقاع ، فأظن أنه ليس أمامنا سوى بديلين .. إما أن انفجارًا ما قد حدث فى مقصورتيها الأماميتين ، أو ...

صمت لحظة فى تردُّد وتفكير ، فأضاف القائد الأعلى فى حزم :

- أو أن غوّاصة أخرى قد ارتطمت بها .

تردّد (نور) لحظة أخرى ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

- هذا احتمال سابق لأوانه ، ثم إنه غير منطقى ، بالنسبة لغواصة نووية مثل (ب . ن - ١٠٣) ، فمع أجهزتها المتطوّرة ، يمكنها رصد أية غواصة أخرى ، تحاول الاقتراب منها ، حتى مسافة ستين ميلاً بحريًا ، حتى ولو كانت تسير بسرعة أربع عقد بحرية فى الساعة ، ومن المحتم أنها كانت سترسل إشارة تحذير على الأقل .

أومأ القائد الأعلى برأسه متفهمًا ، وقال :

عرضت الشاشة صورة حادة الألوان ، بين الأخضر والأحمر والأزرق ، ترسم حدود الغوّاصة (ب . ن - ١٠٣) ، الرابضة فى الأعماق .

- من الواضح أن معلوماتك عن الغواصات النووية معقولة يا (نور) ، ولكن معلوماتك عن الحادث ، الذى نحن بصدده هى المحدودة ، فقد دفع الخبراء القمر الصناعى الجيولوجى إلى أقصى قدراته الرصدية ، خاصة وأن الليل وعمق القاع يعوقان عملية الرصد إلى حد ما ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، استطاع أن يمنحنا بعض التفاصيل المدهشة .

وصمت لحظة ، ثم ضغط زر العرض ، مضيفًا فى توتر بالغ :

- والمخيفة أيضًا .

مع قوله ، عرضت الشاشة صورة حادة الألوان ، بين الأخضر والأحمر والأزرق ، ترسم حدود الغوّاصة (ب . ن - ١٠٣) ، الرابضة فى الأعماق ، ثم راحت الصورة تقترب من مقدّمتها المصابة ، حتى هتف (نور) :

- يا إلهى !

وهنا ، قال القائد الأعلى :

ـ من الواضح أنك قد لاحظت ما أعنيه يا (نور) .. فالإصلية التى رصدها القمر، فى مقدّمة (ب.ن ـ ١٠٣) ، تُبيّن الانبعاجات فى جسمها المعدنى ، من الخارج إلى الداخل ، وليس من الداخل إلى الخارج ، مما يستبعد تمامًا احتمالات حدوث أى انفجار داخلى ، من أى نوع ، ويرجّح وبشدة حدوث اصطدام خارجى عنيف .

ازداد انعقاد حاجبى (نور) ، وهو يتساءل :

ـ ولكن لو افترضنا أنها غوّاصة معادية ، فكيف ..

قاطعه القائد الأعلى ، قائلاً فى صرامة :

ـ مهلاً أيها المقدّم .. لا تتسرّع بالنتائج ؛ فأنت لم تسمع باقى رأى الخبراء هنا .

التفت إليه (نور) ، وتضاعف قلقه وهو يسأله :

ـ وما رأيهم ؟!

أجابه القائد الأعلى فى سرعة ، وكأنما كان ينتظر سؤاله :

ـ لقد أكّدوا أن ما أصاب مقدّمة (ب . ن ـ ١٠٣) ، من المستحيل أن يكون طوربيدًا بحريًا .. بل هو جسم أكبر حجمًا ، وأكثر تفلطحًا ، و ...

صمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر عنيف :

ـ وينطلق بسرعة ما بين سبعين وثمانين عقدة بحرية .

حدّق (نور) فيه بذهول ، هاتفًا :

ـ مستحيل يا سيّدى ! معذرة ، ولكن معلوماتى تقول : إن أقصى سرعة لجسم يسير تحت الماء ، وهى تلك الخاصة بالغواصات النووية الحديثة ، لاتزيد على خمس وأربعين عقدة بحرية ، وهذا منذ بدايات القرن الحادى والعشرين(*).

تنهّد القائد الأعلى ، وهو يقول :

ـ بالضبط يا (نور) .. وهذا يعنى أننا لسنا أمام حادث غوّاصة ، يمكن التعامل معه ، بوسائل القوات

(★) حقيقة .

البحرية وحدها ، ولكننا أمام لغز .. لغز مخيف ، يحتاج إلى تدخُل المخابرات العلمية .. وبكل ثقلها .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ وما الذى ينبغى أن نفعله بالضبط ؟!

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وهو يجيب فى حزم :

ـ منذ ساعة واحدة ، وقبل حتى أن يكتمل رأى خبرائنا ، بدأت القوات البحرية بالفعل عملية واسعة ، لانتشال الغوّاصة النووية (ب . ن ـ ١٠٣) ، وجثث ضحايا الحادث ، والبحث عن ناجين بين الحطام ، وسوف تقوم طوّافة خاصة بنقلكم إلى المدمّرة (فجر) ، مقر قيادة فريق الإنقاذ ، وهناك ، عليكم أن تستغلوا كل قدراتكم ؛ لحل لغز حادث (ب . ن ـ ١٠٣) .. فى الأعماق .

ولم ينبس (نور) ببنت شفة ..

فبالنسبة إليه ، كان الأمر غامضًا ومثيرًا ومخيفًا .. إلى أقصى حد .

★ ★ ★

٢ ـ بحر الغموض ..

انطلقت مركبة الغوص الصغيرة (شارك) ، عبر ممر خاص ، فى قاع مدمرة الإنقاذ (فجر) ، وراحت تغوص فى أعماق البحر ، وعلى متنها فريق من خمسة رجال ، من أفضل عناصر الضفادع البشرية المصرية ، وقائدهم يقول للأربعة الآخرين فى حزم :

ـ ثياب الغوص التى ترتدونها من نوع خاصٍ للغاية ؛ لاحتمال الضغط الجوى الفائق ، على عمق ألف ومائتى متر ، تحت سطح البحر ، حيث يبلغ الضغط مائة وعشرين ضعف الضغط الجوى العادى(*) ، وأسطوانات

(★) الضغط الجوى : هو مقدار الضغط ، الذى تحدثه طبقات الهواء على الأرض ، ويبلغ عند سطح البحر حوالى ٦٫٧ كيلوجرام ، لكل بوصة مربعة ، وهو الضغط الكافى لرفع عمود من الزئبق ٧٫٦ سنتيمترًا إلى أعلى ، ويتضاعف الضغط البحرى مع كل عشرة أمتار ، تحت سطح البحر ، بمقدار ضغط جوى واحد .

الهواء التى تحملونها ، مصنوعة من معدن خاص ، مقاوم للبرد والضغط .. باختصار ، ما ترتدونه أشبه بأردية رواد الفضاء ، منه بزى الضفادع البشرية التقليدى ، وهذا سيعاونكم على السباحة فى ذلك العمق ، وستستخدمون هذه المصابيح الضوئية القوية ، لفحص جسم (ب . ن ـ ١٠٣) ، والبحث عن الناجين داخلها ..

أدار عينيه فى وجوه الرجال الأربعة ؛ ليتأكَّد من أنهم قد استوعبوا كلماته ، قبل أن يتابع :

ـ بالنسبة لعنف الحادث ، والضغط الواقع على الغوَّاصة ، يعتقد الخبراء ، وبكل أسف ، أننا لن نجد أى أحياء داخلها ، خاصة وأن أحدًا لم يحاول إرسال استغاثة صوتية أو ضوئية ، منذ غوصها فى الأعماق ، على الرغم من أن الوسائل متوافرة لديهم بالفعل .

قال أحد الأربعة فى اهتمام :

ـ ربما تلفت وسائلهم ، مع عنف الصدمة ، أو ...

قاطعه قائده فى صرامة :

ـ التفسير ليس مهمتنا يارجل .. إننا سنسعى لجمع الحقائق والمعلومات ، والبحث عن الناجين فحسب .

غمغم الرجل فى توتر :

ـ بالتأكيد .

نطقها ، ثم ساد الصمت التام داخل مركبة الغوص الصغيرة ، وهى تواصل غوصها أكثر وأكثر فى الأعماق ، متجهة نحو (ب . ن ـ ١٠٣) .

لم يكن هناك من يقودها مباشرةً ، وإنما تنطلق بوساطة برنامج تحكم آلىّ ، مزروع فى برنامجها الإليكترونى ، ومحدَّد الهدف مسبقًا ..

لذا فقد سبحت وغاصت فى هدوء ، حتى استقرَّت بالقرب من القاع ، وراحت تدور بمصباحها الضوئى الضخم ، حول جسم الغوَّاصة النووية ، الذى يبلغ طوله ما يقرب من مائة وعشرين مترًا تقريبًا ، ويبلغ عرضه ما يزيد على عشرة أمتار عند الطرفين ، وسبعة عشر مترًا عند المنتصف ..

وأمام عيون الرجال الخمسة المبهوتة ، بدا ذلك الثقب الضخم ، فى مقدّمة الغوّاصة النووية ، والذى التهم مقصورتيها الأماميتين تمامًا ، فى حين بدا باقى الجسم سليمًا ، دون خدش واحد ..

وكان من الواضح أن نفق الهرب لم يُستخدم قط ، وأن أحدًا لم يحاول حتى فتحه ، منذ وقع الحادث ، حتى إن قائد الرجال غمغم فى مرارة :

ـ يا للمساكين ! يبدو أنهم قد لقوا مصرعهم جميعًا ، بعد دقيقة أو دقيقتين على الأكثر من الحادث ، وإلا لكانت أمام بعضهم فرصة للفرار .

تنهد رجل آخر ، وقال فى أسى :

ـ يا للتعساء !

عضّ قائدهم شفتيه ؛ للسيطرة على مشاعره ، وهو يقول فى صرامة ، اصطنعها فى صعوبة بالغة :

ـ ليست هذه مهمتنا أيضًا .. هيا .. استعدوا لبدء العملية .

بدأ الرجال الخمسة يغوصون فى الأعماق ، ويسبحون حول جسم الغوّاصة الضخم ، ومصابيحهم الضوئية تدرس كل شبر منه ، من القطاع الثالث ، وحتى القطاع التاسع ، و ...

وفجأة اتسعت عيون أحدهم فى دهشة بالغة ، ودفع جسده دفعًا ، للاقتراب من جسم الغوّاصة أكثر وأكثر ، قبل أن يتيقّن فجأة مما التقطته أذناه منذ لحظات ..

دقات منتظمة من داخل الغوّاصة ..

دقات ترسل إشارة بلغة (موريس)(*) ..

وبمنتهى التوتر واللهفة ، أشار الرجل لرفاقه وقائده ، ولوّح بمصباحه اليدوى ، فى إشارة متفق عليها ، فهرع الكل إليه ، واتبعوا إشاراته ، فى الاقتراب من جسم الغوّاصة ..

ولم تكن دهشتهم بأقل من دهشة زميلهم ..

(★) لغة (موريس) : إشارة خاصة ، وشفرة صوتية للإرسال والاستقبال ، ابتكرها (صمويل موريس) (١٧٩١ ــ ١٨٧٢ م) ، مخترع أمريكى ، له أبحاث عديدة فى استخدامات الكهرباء .

ليس لأن هذا يعنى وجود ناجين داخل الغوّاصة النووية الغارقة .. بل لأن مضمون الرسالة الشفرية القصيرة ، كان عجيبًا ..

للغاية !

* * *

« ابتعدو ! »

نطتق قبطـان المدمّرة (فجر) ، وقائد فريق الإنقاذ الكلمة بدهشة بالغة ، وهو يحدّق فى وجه قائد الضفادع البشرية ، فهزّ هذا الأخير رأسه ، قائلاً :

ـ نحن أيضًا لم نفهم معنى الرسالة ، وتصوّرنا أننا قد أخطأنا استيعاب الأمر ، ولكن الكلمة كانت واضحة للغاية ، فأيًا كان عدد أو كانت هوية الناجين ، داخل الغوّاصة ، فهم يطالبوننا ـ وبكل إصرار ـ بالابتعاد ، والكف عن محاولة إنقاذهم .

حدّق القبطان فى وجهه بضع لحظات بدهشة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ مستحيل !

شدّ قائد الضفادع البشرية قامته ، وبدا شديد الانتباه ، وهو ينصت إلى قبطان المدمرة ، الذى تابع بنفس الصرامة :

ـ إنه الهواء الفاسد ولاشك ، لقد اشترك مع صدمة الحادث ، لتغيب عقولهم .

تساءل قائد الضفادع البشريةّ فى اهتمام :

ـ هل تعنى أننا سنتخذ كل الإجراءات اللازمة لإنقاذهم ، على الرغم من رسالتهم ؟!

هتف القبطان بمنتهى الحزم :

ـ بالتأكيد .

شدّ قائد الضفادع البشرية قامته أكثر ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، قائلاً فى حماسة :

ـ سأعمل على إعداد كل شىء فورًا ياسيدى .

لم يكد يهرع لتنفيذ الأمر ، حتى ظهرت طوافة فريق (نور) ، وهى تتجه نحو المدمرة ، فغمغم مساعد القبطان فى توتر :

ـ إنهم فريق المخابرات العلمية .. سيدسون أنفهم فى كل شىء كالمعتاد .

غمغم القبطان فى صرامة ، لم تخل من العصبية :

ـ إنها أوامر الرياسة ، ونحن مضطرون لطاعتها ، وللتعاون معهم .

وراقب الطوافة الكبيرة ، وهى تهبط فى المكان المخصص لها ، على سطح المدمرة ، قبل أن يتابع بنفس اللهجة :

ـ بشرط ألا تصطدم مصالحنا .

هبط (نور) من الطوافة ، فى نفس اللحظة التى أنهى فيها القبطان تعقيبه ، وتبعه (أكرم) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لست أشعر بالارتياح ، كلما تعلق الأمر بتعاون مشترك ، مع سلطات الأمن .

ابتسم (نور) ، قائلاً :

ـ أراهنك على أن هذا شعورهم أيضًا .

لحقت بهما (سلوى) ، وهى تتساءل .

ـ (نور) .. أين سنضع معداتنا ؟!

تبعها (رمزى) ، قائلاً :

ـ لا ريب فى أنهم قد دبروا مكانًا مناسبًا لهذا .

تطلع إليه (نور) لحظة فى صمت ، قبل أن يغمغم :

ـ بالتأكيد .

بلغهم القبطان فى هذه اللحظة ، وصافحهم ، قائلاً فى حزم :

ـ مرحبًا بكم على سطح المدمرة (فجر) .

ثم فحصهم ببصره فى سرعة ، قبل أن يتساءل :

ـ ولكن لماذا أبلغونا أن الفريق يتكون من خمسة أشخاص ؟!

تنحنح (رمزى) مجيبًا :

ـ معذرة ، ولكن (نشوى) لم يمكنها المجىء ؛ لأن الموقف .. أعنى أن طفلنا بحاجة إلى رعايتها .

ابتسم (نور) فى مرارة ، وخفض عينيه ، وهو يسترجع السبب الحقيقى ، الذى منع (نشوى) من خوض هذه العملية ، مع باقى الفريق ..

فالبحر ، وأعماقه ، كانا يحملان لها ذكرى قديمة ..

ذكرى لم تفارق عقلها بعد ..

وجسدها أيضًا ..

ذكرى مؤلمة مخيفة ، انتزعت منها ، وبقفزة واحدة ، أجمل سنوات عمرها(*)..

« طفلكما ؟! »

انتزع القبطان (نور) من ذكرياته بتلك الكلمة ، التى نطقها باستنكار واضح ، قبل أن يتجاهل الأمر برمته ، ويقول فى صرامة :

(*) راجع قصة (سادة الأعماق) .. المغامرة رقم (٦٢) .

ـ فليكن .. لقد أعددنا لكم خمس مقصورات ، وقاعة صغيرة لممارسة عملكم ، و ...

قاطعه صوت حاد ، جعل (أكرم) يمسك مسدسه بحركة غريزية ، هاتفًا :

ـ ما هذا ؟!

أجابه مساعد القبطان فى سرعة :

ـ رويدك يا رجل .. إنها مركبة الغوص الصغيرة (شارك) ، تسعى لإنقاذ الناجين فى الأعماق .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ (شارك) ؟! يا له من اسم لمركبة إنقاذ(*) !

أما (نور) ، فتساءل فى لهفة :

ـ أهناك ناجون ؟!

أجابه القبطان فى صرامة :

ـ نعم .. ولكنهم يرسلون رسالة عجيبة .

(*) (شارك) : كلمة انجليزية ، تعنى (سمكة القرش) .

ثم راح يشرح له ما حدث لفريق الضفادع البشرية فى الأعماق . واستمع إليه الكل فى انتباه متوتر ، قبل أن يتساءل (نور) ، فى قلق حذر :

ـ ولكن ما معنى هذا ؟!

أسرع مساعد القبطان يقول :

ـ إنه الهواء الفاسد ، وصدمة الحادث ، و ...

قاطعه (رمزى) فى حزم :

ـ هراء .

انعقد حاجبا القبطان فى غضب ، فى حين ارتفع حاجبا مساعده فى دهشة مستنكرة ، إلا أن (رمزى) تابع فى هدوء حازم ، وكأنما لم ينتبه إلى هذا وذاك :

ـ الهواء الفاسد قد يفقدهم وعيهم ، أو يصيبهم بدرجة ما من الهذيان ، مع الضعف الذى يسبق فقدان الوعى ، ولكنه لن يدفعهم إلى القيام بعمل هستيرى عنيف كهذا ، حتى لو امتزج بصدمة الحادث .

سأله القبطان ، فى شىء من العصبية :

ـ ومن أدراك ؟!

ابتسم (رمزى) ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ يبدو أننى قد نسيت تقديم نفسى .. الدكتور (رمزى) ، خبير الطب النفسى ، ومستشار التحاليل النفسية وفوق النفسية ، بالمخابرات العلمية المصرية ، وعضو فى فريق المقدّم (نور) .

ازداد انعقاد حاجبى القبطان ، وهو يغمغم :

ـ آه .. خبير نفسى .. كان ينبغى أن نتوقّع هذا .

تبادل (نور) نظرة صامتة مع (أكرم) ، قبل أن يتمتم الأخير :

ـ ونحن أيضًا .

ربَت (نور) على ظهره ، محاولاً تهدئته ، وهو يقول للقبطان :

ـ لا بأس .. سنتعارف جميعًا أكثر ، عندما يبدأ

عملنا .. أرجو أن تأمر بعضهم بإرشادنا إلى قاعة العمل الخاصة بنا يا قبطان ، حتى تـ ....

قبل أن يتمّ عبارته ، انبعث من البحر بغتة ضوء قوى ، أحاط بالمدمرة كلها ، فى لمحة سريعة ، أشبه بوميض مصباح تصوير هائل ، سطع وخبا دفعة واحدة ، فاستلّ (أكرم) مسدسه ، هاتفًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

واتسعت عيون (رمزى) و(سلوى) عن آخرهما ، فى حين انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وتلفّت القبطان حوله ، هاتفًا فى عصبية بالغة :

ـ نعم .. ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ، وما الـ ..

قبل أن يكتمل هتافه ، ارتجّت المدمرة كلها بموجة عنيفة من الأعماق ، جعلتها تتأرجح كورقة صغيرة ، على سطح حوض ثائر ، فاتسعت عينا مساعد القبطان ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ يا إلهى ! (شارك) !!

مع آخر حروف كلمته ، اندفع ضابط الرصد نحو القبطان ، صائحًا فى ذعر واضح ملتاع :

ـ سيّدى القبطان .. سيّدى القبطان .. المركبة (شارك) .

صاح به القبطان :

ـ ماذا أصابها ؟! هل انفجرت ؟!

هزّ الرجل رأسه فى قوة ، قبل أن يجيب ، وهو يلهث من فرط الانفعال :

ـ بل اختفت .. اختفت تمامًا .. فى الأعماق .

وكانت مفاجأة جديدة ..

مذهلة ..

* * *

استعاد (أمجد صبحى) نشاطه وحيويته ، على نحو مدهش ، وهو يراجع الخرائط البحرية ، مع نائب قائد القوات البحرية ، فى حجرة العمليات الخاصة ، فى مقر

رياسة الجمهورية ، فى (القاهرة) الجديدة ، وبدا شديد الاهتمام بمتابعة الموقف دقيقة بدقيقة وهو يشير إلى موضع غرق (ب . ن ـ ١٠٣) ، قائلاً :

ـ الاحتمال الذى افترضه الخبراء خطير للغاية ؛ فهو يعنى أن أحد أعدائنا قد نجح فى صنع نوع من الغواصات ، صغيرة الحجم ، فائقة السرعة والقوة ، بدليل أنها قد حطّمت غواصتنا النووية ، بجسمها الكبير القوى ، ثم لم تترك أى جزء من حطامها فى المنطقة .

هزّ نائب قائد القوات البحرية رأسه ، قائلاً :

ـ لست أميل إلى هذا الاحتمال ، على الرغم من تأكيد الخبراء ، فلو صح ، فهذا يوحى بأن ..

قبل أن يتمّ حديثه ، ارتفع صوت الرئيس ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول :

ـ سيّد (أمجد) .. أرجو حضورك إلى مكتبى فورًا .

انفصل (أمجد) عن المجموعة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ معذرة أيها السادة .. تابعوا الموقف ، وسأعود إليكم بأسرع وقت ممكن .

تساءل ، وهو فى طريقه إلى مكتب السيّد الرئيس ، عن السبب الذى يدعوه لطلب لقائه ، على هذا النحو العاجل ، على الرغم من أن كل التقارير العاجلة ، الخاصة بالحادث ، تصل إلى غرفة العمليات ، فى نفس اللحظة التى تصل فيها إلى مكتب الرئيس ..

ولكنه لم يكد يدلف إلى مكتب الرئيس ، حتّى استوعب السبب ، إلى حد ما ..

فهناك ، وعلى المقعد المواجه للمكتب تمامًا ، كان يجلس رجل طويل القامة ، متين البنيان ، أشقر الشعر ، لم يكد يلمح (أمجد) ، حتى نهض واقفًا ، والرئيس يقول :

ـ ادخل يا (أمجد) ، ودعنى أقدّم لك الملحق العسكرى الروسى .

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى (أمجد) ، وهو يقول :

ـ آه .. الكولونيل (موريس بيرجانوف) .. رجل المخابرات السابق .. أم هل أقول : والحالى أيضًا ؟!

ابتسم الكولونيل الروسى ابتسامة صفراء ، وهو يمدّ يده لمصافحة (أمجد) ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيِّد (أمجد) .. من الواضح أنك لم تنس بعد مواجهتنا السابقة فى (سيبيريا) ، منذ عدة سنوات .

أشار (أمجد) إلى رأسه ، قائلاً :

ـ على الرغم من هذا الشعر الأشيب ، ما زال عقلى يعمل بكفاءة تامة يا كولونيل .

مطَّ الروسى شفتيه ، وغمغم :

ـ بالتأكيد يا سيِّد (أمجد) .. بالتأكيد .

تراجع الرئيس فى مقعده ، وهو يشير بيده إلى الكولونيل (بيرجانوف) ، قائلاً :

ـ الكولونيل هنا بشأن حادث الغوَّاصة يا (أمجد) .

بدا (أمجد) هادئًا ، وهو يتساءل :

ـ أية غوَّاصة ؟!

ابتسم الرئيس ، لهذه المبادرة الأمنية التلقائية من (أمجد) ، وقال :

ـ غواصتنا (ب . ن ـ ١٠٣) يا (أمجد) ، فالروس قد رصدوا الحادث بأقمارهم الصناعية .

اندفع الكولونيل يقول فى سرعة :

ـ بالمصادفة البحتة .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (أمجد) ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟!

انعقد حاجبا الروسى فى غضب ، فى حين قال الرئيس فى حزم :

ـ الروس يرون أنه توجد علاقة وثيقة ، بين حادث غواصتنا ، وحادث قديم ، أصاب غواصتهم (كورسيك) ، فى الثانى عشر من أغسطس ، عام ألفين .

أجاب (أمجد) فى حذر :

- إننى أذكر حادث غرق (كورسيك) هذا جيدًا .

حاول الكولونيل (بيرجانوف) أن يستعير سخريته، وهو يقول :

- حقًا ؟!

تابع (أمجد) ، وكأنه لم يسمعه :

- ففى الثانى عشر من أغسطس، عام ألفين، أصيبت الغوّاصة الروسية النووية (كوسيك) إصابة عنيفة فى مقدمتها، وهى تسير على عمق خمسين مترًا، فى بحر (بارينتس)(*)، مما أدى إلى غرقها، وعلى متنها مائة وثمانية عشر شخصًا، لقى معظمهم مصرعهم، مع الإصابة الأولى، وبقى ثلاثة وعشرون آخرون، انتقلوا من المقصورات السادسة والسابعة والثامنة، إلى المقصورة التاسعة، المحكمة ضد المياه، بحيث تكون منفذًا للهرب، وعلى الرغم من هذا، فإن

(★) بحر (بارينتس) : بحر فى شمال (أوروبا) و(روسيا) ، يتصل بالمحيط المتجمد الشمالى ، وبحر (كارا) ، ويطل عليه ساحل (روسيا) الشمالى ، وجزء من ساحل (النرويج) .

أحدهم لم يهرب، بل بقى الكل، حتى تم انتشال أربع جثث، من المقصورة التاسعة، بعد عدة أيام(*) .

ثم عقد ساعديه أمام صدره، متسائلاً، فى شىء من الصرامة :

- السؤال هو : لماذا لم يتم انتشال كل الجثث ؟!

صمت الكولونيل الروسى بضع لحظات، قبل أن يقول فى حزم :

- لماذا لا نؤجّل هذا السؤال للنهاية يا سيد (أمجد) ؟!

هزّ (أمجد) شفتيه، وقال :

- هذا لو عرفنا البداية .. أقصد الحقيقية، وليست المعلنة .

التقط الكولونيل نفسًا عميقًا، قبل أن يقول :

- هذا ما أتيت من أجله يا سيّد (أمجد) ، فالرؤساء فى (موسكو) يرون أن الضرورة الأمنية تحتم تبادل الأسرار .. الآن .

(★) واقعة حقيقية بكل التفاصيل المذكورة .

تبادل الرئيس نظرة صامتة مع (أمجد) ، قبل أن يقول :

ـ فليكن يا كولونيل .. كلنا آذان مصغية .

التقط الروسى نفسًا آخر أكثر عمقًا ، قبل أن يقول :

ـ التحليل الرسمى للحادث قال : إن خللاً أصاب الغوّاصة ، فمالت على نحو خطير ، جعلها ترتطم بالقاع القريب فى عمق ، حيث إن عمق منطقة غرقها لم يكن يتجاوز المائة وخمسين مترًا ، ومع طولها البالغ ، وسرعتها ، حدث ما حدث ، ولقد أدى هذا ، وفقًا للتقرير الرسمى أيضًا ، إلى انطلاق صاروخ داخلها ، فنسف مقدمتها .

سأله (أمجد) :

ـ وماذا عن الحقيقة ؟!

صمت الكولونيل طويلاً ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ الحقيقة أن جسمًا غريبًا قد ارتطم بغواصتنا ، وارتطامه هو الذى أدى إلى انطلاق ذلك الصاروخ داخلها .

تبادل الرئيس نظرة أخرى مع (أمجد) ، قبل أن يتساءل الأخير فى اهتمام بالغ :

ـ أى جسم هذا ؟!

هزّ الكولونيل رأسه فى عصبية ، وهو يجيب :

ـ جسم مجهول الهوية ، ارتطم بغواصتنا ، وهو يسير بسرعة سبعين عقدة بحرية فى الساعة .

غمغم (أمجد) :

ـ الجسم الذى أصاب غواصتنا ، كان ينطلق بسرعة ثمانين عقدة بحرية .

لوّح الكولونيل بيده ، قائلاً :

ـ لا تنس أن غواصتنا غرقت فى آخر أعوام القرن العشرين(*) ، وغواصتكم غرقت فى آخر العقد الأوّل ، من القرن الحادى والعشرين ، وهذا صنع فارقًا فى سرعة غواصاتنا ، فما بالك بـ ...

(*) يبدأ القرن الحادى والعشرين فعليًا ، مع بداية عام ٢٠٠١ م ، وليس مع بداية عام ٢٠٠٠ م ، كما تصوّر البعض .

بتر عبارته دفعة واحدة ، فقال (أمجد) يستحثه فى حزم :

ـ فما بالك بماذا ؟!

تردّد الكولونيل بضع لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ بغواصاتهم .

التقى حاجبا الرئيس فى توتر صامت ، فى حين تساءل (أمجد) فى حزم :

ـ من تقصد بـ (هم) هذه ؟!

تضاعفت عصبية الكولونيل الروسى ، وهو يقول :

ـ أنت تفهم ما أعنيه .

ثم نقل بصره بين الرجلين ، مستطردًا :

ـ المخلوقات الفضائية طبعًا .

اعتدل الرئيس بحركة حادة ، وهو يكرّر ، بكل دهشة الدنيا :

ـ مخلوقات فضائية ؟!

أما (أمجد) ، فقال فى صرامة مستنكرة :

ـ ومن تحدّث الآن عن مخلوقات فضائية ؟! الحادث تم فى أعماق البحر يا رجل .

قال الكولونيل فى عنف :

ـ من الواضح أنك لم تسع خلف الملفات السرية لحادث غواصتنا (كورسيك) يا سيّد (أمجد) ، ولم تتساءل أبدًا لماذا انتظرنا أربعة أيام ، قبل أن نطلب مساعدة أجنبية ؛ للقيام بعملية الإنقاذ ، ثم ، وهذا هو الأهم ، لماذا انتشلنا أربع جثث فحسب ، على الرغم من عمل جنازة رسمية لتوابيت خاوية ؟!

قال (أمجد) فى حذر :

ـ لقد تصوّرنا أن هذا لتهدئة الرأى العام الغاضب فحسب .

هزّ الكولونيل رأسه فى قوة ، وقال :

ـ ومنذ متى كان هذا يُزعج السلطات الروسية ؟!

أشار إليه (أمجد) ، قائلاً فى اهتمام :

ـ أخبرنا ما لديك إذن .

مطّ الكولونيل شفتيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ الواقع أننا بدأنا محاولات الإنقاذ فورًا ، كما فعلتم أنتم .

سأله (أمجد) :

ـ وماذا حدث عندئذ ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يجيب :

ـ تضاعفت الخسائر ..

تساءل الرئيس فى دهشة :

ـ ولماذا ؟!

أجاب الروسى ، فى سرعة وعصبية :

ـ لأن الأمور كانت تفوق قدراتنا ، وهذا يجيب السؤال الثانى ، الخاص بطلب مساعدة أجنبية أيضًا .

سأله (أمجد) :

ـ وماذا عن السؤال الثالث ، الخاص بانتشال أربع جثث فحسب ، من مجموع ضحايا الحادث ؟!

صمت الروسى لدقيقة كاملة هذه المرة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ويشدّ قامته ، قائلاً :

ـ لقد انتشلنا كل ما عثرنا عليه .

انعقد حاجبا الرئيس ، فى حين تساءل (أمجد) ، فى حذر متوتر :

ـ وماذا عن الباقين ؟!

أجاب الروسى ، بكل صرامة الدنيا :

ـ لم يكن لهم أدنى أثر .. لقد اختفوا من داخل الغوّاصة .. اختفوا تمامًا .

وتفجَّر الذهول ..

بمنتهى القوة .

* * *

انعقد حاجبا الرئيس ، في حين تساءل (أمجد) ، في حذر متوتر :
ـ وماذا عن الباقين ؟! ..

٣ ـ الحصـــار ..

لم تستطع (نشوى) منع ذلك التوتر ، الذى سرى فى جسدها ، على الرغم منها ، وهى تتطلع إلى (مشيرة) زوجة (أكرم) ، ورئيسة تحرير (أنباء الفيديو) ، أول جريدة تليفزيونية فى العالم ، والذى حاولت أن تخفيه عن صوتها ، وهى ترغم نفسها على الابتسام ، قائلة :

ـ (مشيرة) ؟! يالها من مفاجأة ! لم أتوقع زيارتك هذه قط فى الواقع .

ابتسمت (مشيرة) بشىء من السخرية ، وهى تقول :

ـ لا داعىَ لهذه الدبلوماسية الخبيثة ، التى ورثتها عن والدك يا (نشوى) .. كلانا يعلم أنك لا تشعرين بالارتياح لزيارتى هذه .

ثم أزاحتها عن طريقها ، على نحو يتنافى مع اللياقة ، وهى تدلف إلى المكان ، متابعة :

ـ أين الصغيران ؟!

أجابتها (نشوى) ، فى ضيق لم تحاول كتمانه هذه المرة ، وهى تغلق الباب خلفها :

- نائمان بالطبع .. إنها الحادية عشرة مساءً ، والأطفال لا يستيقظون ، حتى هذه الساعة المتأخرة .

جلست (مشيرة) على أول أريكة صادفتها ، وهى تقول فى خبث :

- من حسن الحظ أن الكبار يفعلون .

لم يكن لدى (نشوى) وقت للمناورة ، لذا فقد سألتها مباشرة :

- ما سر هذه الزيارة يا (مشيرة) ؟!

هزّت (مشيرة) كتفيها ، قائلة :

- التساؤل بالطبع يا عزيزتى ..

سألتها (نشوى) ، وقد بدأ شىء من العصبية يتسلل إلى صوتها :

- التساؤل عن ماذا ؟!

مالت (مشيرة) إلى الأمام بحركة حادة ، وهى تقول :

- عن تلك المهمة ، التى هرع إليها (أكرم) ، مع باقى أعضاء الفريق ، ثم بقيت وحدك هنا ، على غير العادة ، دون الانضمام إليهم فيها !

أجابتها (نشوى) فى عصبية واضحة :

- كان لابد أن يبقى أحد ؛ لرعاية الطفلين .

أطلقت (مشيرة) ضحكة قصيرة عصبية ، قبل أن تقول :

- حقًا ؟! ولماذا هذه المرة ؟!

مالت (نشوى) نحوها بدورها ، وقالت فى صرامة :

- (مشيرة) .. أنت تعلمين أنك لن تحصلى على أى جواب .

قالت (مشيرة) فى توتر :

- نعم .. أعلم هذا .

ثم انفجرت فجأة ، مستطردة :

- وهذا ما يثير أعصابى دومًا .

هتفت بها (نشوى) فى غضب :

ـ اخفضى صوتك .. الطفلان نائمان .

تراجعت (مشيرة) فى جلستها ، وبدت شديدة العصبية ، وهى تلوذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن تقول :

ـ ألهذا علاقة بحادثة الغوّاصة ؟!

كان القول مفاجئًا بعنف ، حتى أن صوت (نشوى) الشاحب قد أفصح عن ذهولها ، وهى تقول :

ـ أية غوّاصة ؟!

عادت (مشيرة) تميل نحوها ، قائلة بنفس العصبية :

ـ من الواضح أنكم ، وبعد كل هذا ، ما زلتم عاجزين عن إدراك ما تستطيعه الصحافة ، فى زمننا هذا .

جلست (نشوى) على مقعد قريب ، ولاذت بالصمت التام ، و(مشيرة) تتابع فى عصبية ، حملت لمحة من الزهو والغطرسة :

ـ بعد أقل من نصف الساعة ، من انصراف (أكرم) ، وصلنى خبر حادث غواصتنا النووية ، عن طريق أحد مخبرينا .. صحيح أن وزارة الدفاع ، وقيادة القوات البحرية قد أنكرتا وقوع الحادث ، وادعيتا أنه مجرَّد عطل طارئ ، يجرى إصلاحه ، إلا أننى أدرك بخبرتى ، أن الأمر يتجاوز هذا بكثير حتمًا ، وأنه هناك لغز وراء حادث الغوّاصة هذا .

هزَّت (نشوى) رأسها ، قائلة :

ـ إنه مجرَّد استنتاج .

مالت (مشيرة) نحوها أكثر ، وهى تقول :

ـ استنتاج ؟! خطأ يا عزيزتى .. إنه يقين .. (نور) وفريقه ، الذى يضمَ زوجى (أكرم) يبحثون لغز الغواصة النووية ، الغارقة حتمًا فى أعماق البحر ، وأنت بقيت هنا ، لأنك لا تستطيعين مواجهة الموقف نفسه مرتين .. أتسمين هذا استنتاجًا ؟!

نهضت (نشوى) فى حزم ، قائلة :

ـ نعم .. مجرَّد استنتاج .

رفعت (مشيرة) عينيها إليها ، متسائلة فى سخرية :

ـ هل يعنى هذا أن المقابلة قد انتهت ؟!

أجابتها (نشوى) فى تحد :

ـ هذا استنتاج عبقرى بحق .

هزّت (مشيرة) كتفيها ، قائلة فى تحد :

ـ وماذا لو أصررت على البقاء ؟!

أجابتها (نشوى) بتحد أكبر :

ـ عندئذ سأضطر للاتصال بمسئول الأمن ؛ لأننى أؤدّى اليوم عملاً للحكومة ، يستلزم السريةّ التامةّ .

بدا وكأن الزمن قد توقّف بضع لحظات ، التقت خلالها عيونهما فى تحد سافر ، قبل أن تنهض (مشيرة) ، وتهزّ رأسها ، قائلة :

ـ أنتم بالفعل لا تدركون ما تستطيعه الصحافة .

قالتها ، ورمت (نشوى) بنظرة متحدية ، قبل أن تغادر المنزل ، وتغلق الباب خلفها ، فزفرت (نشوى) ، مغمغمة فى عصبية :

ـ يا لك من عنيدة !

ثم اتجهت فى توتر إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بها ، وألقت نظرة على شاشته قبل أن تقول فى توتر :

ـ يا إلهى ! إنها رسالة من أمى .. لقد فاتتنى الأحداث الأخيرة .

أسرعت تضغط أزرار الكمبيوتر ، لتطالع رسالة (سلوى) ..

ولكن ما إن وقع بصرها على محتوياتها ، حتى اتسعت عيناها عن آخرهما ..

فالأخبار الواردة من عرض البحر كانت مذهلة .. وبكل المقاييس ..

* * *

« لابد أن نجد تفسيرًا لما حدث .. »

نطقت (سلوى) العبارة ، وهى تطالع شاشة جهاز الرصد الخاص بها ، بعد أن استقرّ بهم المقام فى تلك القاعة

الصغيرة ، التى تم إعدادها خصيصًا لهم ، ثم التفتت لمراجعة باقى أجهزتها ، وهى تواصل فى اهتمام :

- الرصد الشامل ، الذى قمت به ، يؤكد أن (شارك) قد اختفت تمامًا ، ولم يعد لها أدنى أثر ، فى دائرة مركزها الغوّاصة الغارقة ، ونصف قطرها عشرة أميال بحرية .

سألها (نور) فى اهتمام بالغ :

- هل تعتقدين أنها قد انفجرت ، على نحو ما ؟!

هزّت رأسها ، قائلة :

- مستحيل ! المراقبون هنا كانوا يستخدمون (السونار) ، لرصد حركتها فى الأعماق ، ولو أنها انفجرت ، أو حتى ارتطمت بأى شىء ، لرصد (السونار) الموجات الصوتية ، الناشئة عن هذا .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

- لا شىء يتلاشى هكذا .. لقد علمونا قديمًا أن المادة لا تفنى ، ولا تستحدث من عدم .

أشارت (سلوى) بسبّابتها ، قائلة :

- هذه نظرية قديمة ، تم تطويرها فيما بعد ، ليقال : إن الطاقة لا تفنى ، ولا تنشأ من العدم ، إذ إن المادة يمكن أن تفنى ، بتحولها إلى نوع من الطاقة ، كما يحدث عند الاحتراق مثلاً .

سألها (أكرم) فى حدة :

- هل تعتقدين أن مركبة الغوص الصغيرة قد احترقت ، فى أعماق البحر ؟!

أجابته بصوت ، حمل لمحة من الصرامة :

- ليس بالمعنى المباشر ، وإن كان الاحتراق فى قاع البحر ليس بالأمر المستحيل علميًا(*) ، ولكن ما أقصده هو أنه من المحتمل أن تكون المركبة قد تعرّضت لشىء ما ، حولها إلى طاقة .

سألها (رمزى) :

- وماذا عن ذلك الارتجاج ، الذى شعرنا به ؟! ألم يكن يشير إلى حدوث انفجار ما ، تحت سطح البحر ؟!

(★) قديمًا كان الغواصون يستخدمون شرائط من المغنسيوم ، لإشعالها تحت سطح البحر .

أجابته ، وهى تضبط أجهزتها :

ـ هذا ما تصوَّرته فى البدايـة ، حتى راجعت قراءات (السونار) ، فلقد اختفت (شـارك) أوَّلاً ، وبعدهـا سطع ذلك الوميض القوى ، وانبعثت موجة الارتجاج من الأعماق .

قال (أكرم) :

ـ وماذا لو ... ؟!

ولكنها قاطعته ؛ لتكمل قولها فى حزم :

ـ ولكن ليس من موضع (شارك) .

سألها (نور) :

ـ من أين إذن ؟!

أشارت بيدها إلى الخريطة البحريـة أمامها ، قبل أن تجيب :

ـ من (ب . ن ـ ١٠٣) .

بدت الدهشة على ثلاثتهم ، وهتف (نور) :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تجيب :

ـ لست أدرى .

وتنهَّدت فى عمق ، قبل أن تضيف فى حزم :

ـ ولكننا هنا لنبحث عن الأجوبة .

دلف القبطان إلى القاعة ، فى هذه اللحظة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل توصَّلتم إلى شىء ؟!

التفت إليه (نور) ، قائلاً :

ـ الأمور لا تسير بهذه السرعة .

صاح به فى غضب :

ـ كيـف كنت تتمنَّـى أن تسير إذن ، لـو أنـك أحـد المحتجزين داخل غوَّاصة محطمة ، فى أعماق البحر ؟!

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .

تضاعف غضب القبطان ، وهو يهتف :

ـ أى جهد هذا الذى تتحدَّث عنه ؟! إنكم تجلسون فى قاعتكم هذه دون عمل ، منذ أكثر من نصف الساعة ، وزملاؤنا يختنقون فى الأعماق .

احتقن وجه (نور) ، وبدا الموقف منذرًا بالخطر ، فاندفع (رمزى) يسأل القبطان فى هدوء :

ـ ما الذى تتوقَّع منا أن نفعله أيها القبطان ؟!

لوَّح القبطان بذراعيه على امتدادهما ، قائلاً فى غضب :

ـ أى شىء ، إلا أن تجلسوا هنا هكذا .

كاد (نور) ينطق شيئًا ما ، ولكن (رمزى) استوقفه بإشارة حازمة ، وهو يقول للقبطان بنفس الهدوء :

ـ الواقع أن عملنا هو أن نجلس هنا ، وأن ندرس الموقف من الناحية العلمية ، أما بالنسبة للحركة والنشاط ، فهو الجزء الخاص بكم ، حتى لا تتداخل الصلاحيات .

تمتم (أكرم) ، وهو يشيح بوجهه :

ـ للأسف .

أما القبطان ، فقد حدَّق فى وجه (رمزى) بضع لحظات ، قبل أن يشدَّ قامته ، ويقول فى حزم صارم :

ـ هذا صحيح .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وأضاف :

ـ ولقد اتخذنا خطوات عملية بالفعل .

أدرك (نور) من العبارة أن (رمزى) قد استغل موهبته بنجاح ، فسأل القبطان فى اهتمام :

ـ وما هى ؟!

أجابه القبطان :

ـ هناك مركبة غوص أخرى ، من طراز (شارك) أيضًا ، فى طريقها إلى هنا .

قالت (سلوى) فى حزم :

ـ خطأ .

استدار إليها القبطان فى غضب ، مكررًا :

ـ خطأ ؟!

أسرع (نور) يقول :

ـ زوجتى تقصد أننا لم نتوصّل بعد لما أصاب المركبة الأولى ، ومن الخطر أن نجازف بإرسال أخرى ، قبل حسم أمر الأولى ، خشية أن تتكرّر المأساة .

قال القبطان فى عصبية :

ـ ومن الخطأ أيضًا أن نترك الزملاء يواجهون الموت فى الأعماق ، حتى تتوصّلوا إلى حل اللغز .

كان كلاهما على حق فى منطقه ، لذا فقد غمغم (نور) :

ـ نحتاج إلى حل وسط .

هزّ القبطان رأسه فى شدة ، قائلاً :

ـ فى مثل هذه الظروف ، لا توجد حلول وسط .

مرة أخرى ، تدخّل (رمزى) ، وهو يقول بابتسامة هادئة :

ـ فى كل الظروف والأحوال ، هناك حتمًا حل وسط .

التفت إليه القبطان ، قائلاً فى حدة :

ـ مثل ماذا ؟!

اندفع (أكرم) يقول فى عصبية :

ـ إرسال غوّاص آلى مثلاً .

لم يكد ينطقها ، حتى ساد القاعة الصغيرة فجأة صمت رهيب ، واتجهت العيون كلها إليه ، فقال فى عصبية أكثر :

ـ إنه مجرّد اقتراح .

هتفت (سلوى) فى حماسة :

ـ اقتراح رائع .

وابتسم (نور) ، وتألّقت عيناه ، وهو يقول :

ـ بل أكثر من رائع .

ثم التفت إلى القبطان ، متابعًا فى حماسة :

ـ وفقًا لمعلوماتى، لديكم غوّاص آلى هنا ، بالمواصفات المطلوبة ، يمكننا إضافة آلة تصوير فيديو صغيرة به .

التقى حاجبا القبطان ، وهو يقول :

ـ لدينا بالفعل غوّاص آلى ، مزوّد بآلة تصوير ، ومصدر ضوئى قوى ، ولكننا لم نختبره قط ، فى مثل هذا العمق .

قال (رمزى) فى هدوء :

ـ أظن أنه قد حان الوقت لاختباره .

رفع إليه القبطان عينين متألقتين ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

قالها ، واندفع دون إضافة حرف واحد ، لإصدار أوامره فى هذا الشأن ، ولم يكد يغادر الحجرة ، حتى شدّ (أكرم) قامته ، وتمتم فى شىء من الزهو :

ـ كان مجرّد اقتراح .

ربَّت (نور) على ظهره ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ بل كانت لمحةً عبقرية .

مع آخر حروف كلماته ، صدر أزيز مميَّز ، من جهاز الاتصال الخاص ، فألقت (سلوى) نظرة سريعة على شاشته ، وقالت :

ـ رسالة خاصة لك يا (نور) .

سألها ، وهو يتجه إليها بخطوات سريعة :

ـ ممن ؟!

أفسحت له مقعدها ، وهى تجيب :

ـ السيّد (أمجد صبحى) .

انعقد حجبا (نور) ، وهو يجلس أمام جهاز الاتصال المؤمَّن ، ليطالع رسالة (أمجد) ، فى حين تهلَّلت أسارير (أكرم) ، وهو يهتف :

ـ حقًّا ؟! كم أتفاءل بوجوده .

ثم استدار إلى (رمزى) ، مكملاً فى حماسة :

ـ فى شبابى ، كنا نعتبره أسطورة .

ابتسم (رمزى) مغمغمًا :

ـ وما زلنا .

قالها ، وعيناه تتطلّعان إلى (نور) ، الذى ازداد انعقاد حاجبيه بشدة ، وهو يطالع رسالة (أمجد) ، قبلِ أن يمحوها بضغطة زر ، ثم يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ يبدو أن ما نواجهه لم يولد مع غروب شمس اليوم يا رفاق .

ثم التفت إليهم ، مستطردًا فى توتر :

ـ بل منذ عشر سنوات .

حدّق (أكرم) و(سلوى) فيه بدهشة ، فى حين هتف (رمزى) فى لهفة متوترة :

ـ ماذا قالت رسالة السيّد (أمجد) ؟!

نهض (نور) ، وتحرّك فى صمت ، حتى منتصف القاعة ، قبل أن يرفع عينيه إليهم ، قائلاً فى بطء :

ـ قالت الكثير .. والمثير .

لم تكد كلمته الأخيرة تُختتم ، حتى ارتفع أزيز مختلف ، من جهاز الرصد الخاص بـ (سلوى) ، فالتفت الكل إليه فى توتر ، وهتفت هى ، وهى تندفع نحوه :

ـ تُرى ماذا يقترب منا هذه المرة ؟!

قبل أن تبلغ الجهاز ، امتزج أزيزه بأزيز ثان ..

ثم ثالث ..

ورابع ..

وخامس ..

وهنا هرع الكل نحوه ..

وفى نفس اللحظة ، التى التفّ فيها الأربعة حول الجهاز ، اندفع أحد ضباط المراقبة داخل القاعة ، وهتف بصوت حمل كل توتر الدنيا :

ـ إننا محاصرون .

وكان هتافه هذا يتفق مع ما يرونه جميعًا ، على شاشة جهاز (سلوى) ..

ومع ما أثار خوفهم ..

حتى النخاع ..

* * *

« خمس مركبات مجهولة ، تحيط بالمدمرة (فجر) .. »

نطق (أمجد) بالعبارة فى توتر ، وهو يقف أمام رئيس الجمهورية ، والكولونيل (بيرجانوف) ، الذى سأله فى توتر :

- وكيف علمتم بهذا ؟!

أشار (أمجد) بسبّابته وإبهامه مجيبًا :

- أعلم ما تعنيه بسؤالك هذا ، فلقد انقطعت الاتصالات المباشرة ، بيننا وبين المدمرة (فجر) فور ظهور تلك المركبات الخمس ، ولكن كانت هناك وسيلتان

أخريين .. أولهما أن (سلوى) خبيرة الاتصالات بفريق (نور) ، قد أبرقت بالخبر فورًا إلى ابنتها (نشوى) ، خبيرة الكمبيوتر لدينا ، وثانيهما أن قمرنا الصناعى الجيولوجى قد رصد الموقف فورًا .

انعقد حاجبا الروسى ، فى حين تساءل رئيس الجمهورية ، فى قلق عارم :

- هل تعتقد أن تلك المركبات الخمس ستسعى لتدمير (فجر) وإغراقها ، كما حدث مع (ب . ن - ١٠٣) يا (أمجد) ؟!

انفرجت شفتا (أمجد) ، ليدلى بدلوه فى الأمر ، ولكن الروسى اندفع يجيب بدلاً منه فى سرعة :

- ليس بعد .

لم يفهم الرئيس جوابه ، فتطلّع إليه فى توتر ، فى حين تابع هو فى انفعال ، وهو يلتفت إلى (أمجد) :

- قل لى : كيف تمكنت خبيرتكم من إبلاغ الخبر لابنتها ، على الرغم من انقطاع الاتصالات بالمدمرة (فجر) ، فور ظهور تلك المركبات المجهولة ؟!

أشار (أمجد) بيده ، وهو يجيب فى حذر :

- إنها تستخدم جهازًا خاصًا ، يبث إشارات محمولة ، على شعاع من الليزر ، وتنقلها الأقمار الصناعية إلى شبكة الإنترنت اللاسلكية .

تألّقت عينا الروسى ، وهو يقول :

- عظيم .. هذا يمنحكم مزية ، لم تتوافر لنا ، خلال حادث (كورسيك) .

ثم أمسك كتفى (أمجد) فجأة ، وهو يتابع فى انفعال :

- هيا .. أسرع ، ولا تضيع الوقت يا رجل .. اتصل بابنة خبيرتكم ، واطلب منها أن تبلغ أمها ، بضرورة مغادرة المدمرة (فجر) فورًا ، ودون إبطاء .. فورًا يا رجل .. فورًا .

هبَّ رئيس الجمهورية واقفًا ، وتطلّع إلى (أمجد) فى توتر بالغ ، ولكن هذا الأخير منحه إشارة تهدئة خفية ، وهو يسأل (بيرجاتوف) فى صرامة :

- لماذا يا رجل ؟! لماذا نطالب رجالنا بالتخلّى عن زملائهم ، القابعين فى أعماق البحر ، فى انتظار النجدة ؟! لماذا ؟!

هزّ الروسى رأسه فى قوة ، مجيبًا :

- إنهم لا ينتظرون أية نجدة ؛ لأنهم يعلمون أنه لا أمل لهم فى النجاة ، ولهذا طالبوا الباقين بالابتعاد ، حتى لا ينالهم المصير نفسه .

انعقد حاجبا (أمجد) فى شدة ، وهو يتطلّع إليه فى صرامة ، قائلاً :

- كولونيل (بيرجاتوف) من الواضح أنك لم تبلغنا كل ما لديك ، فما الذى تخفيه عنا بالضبط ؟! ولماذا رفضت أن تشرح لنا سر اختفاء بحارة (كورسيك) ، فى عام ألفين ؟!

هتف الروسى فى عصبية :

- لا وقت لهذا يا رجل .. مرهم أولاً بمغادرة المدمرة ، ثم ..

قاطعه (أمجد) بصرامة شديدة :

ـ المعلومات أولاً .

تطلَّع الروسى إلى عينيه ، اللتين تحملان كل صرامة الدنيا ، ثم زفر فى استسلام ، وغمغم :

ـ فليكن .

ثم بدأ يروى ما لديه ..

وكانت الحقائق رهيبة ومذهلة ..

بلا حدود .

★ ★ ★

٤ـ الأشباح ..

« تُرى ماذا يريدون بالضبط ؟! »

غمغمت (سلوى) بالعبارة فى توتر ، وهى تتطلَّع إلى شاشة راصدها ، التى تنقل صورة بالموجات الصوتية للمركبات المجهولة الخمس ، التى تحيط بالمدمرة (فجر) ، فى سكون تام ، منذ ما يقرب من نصف الساعة ، فهزَّ (أكرم) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ أظنهم يريدون تحطيم أعصابنا .

تساءل (رمزى) :

ـ ولكن لماذا ؟! إنهم إما أعداء أو أصدقاء ، وكلا الحالين يستلزم نوعًا من الاتصال !

قال القبطان فى صرامة متوترة :

ـ أظن أن ما فعلوه بالغواصة (ب . ن ـ ١٠٣) ، وبمركبة الغوص (شارك) ، يضعهم فى خانة الأعداء .

انعقد حاجبا (نور) ، دون أن يعلّق على الأمر ، وبدت على وجهـه علامات التفكير العميق ، فالتفت القبطان إلى مساعده ، قائلاً :

ـ ماذا عن الاتصال بالقاعدة ؟!

هزّ مساعده رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كل الاتصالات بالقاعدة مقطوعة .

قالت (سلوى) فى سرعة :

ـ فيما عدا اتصالات جهازى الخاص .

استدار إليها القبطان ، قائلاً ، بنفس الصرامة العصبية :

ـ هذا يجعلك وسيلة اتصالنا الوحيدة ، بالعالم الخارجى يا سيدتى .

غمغمت فى توتر :

ـ أعتقد هذا .

سألها فى اهتمام :

ـ هل أبلغت القيادة بموقفنا الحالى ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

سألها ، وقد امتزج اهتمامه بلهفة متوترة :

ـ وماذا كان جوابهم ؟!

هزّت رأسها ، مجيبة :

ـ لم أتلق الجواب بعد .

التقى حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أنه علينا أن نتخذ القرار بأنفسنا .

سأله (أكرم) فى عصبية :

ـ أى قرار ؟! الموقف متجمّد تمامًا حسبما أرى .

أجابه القبطان فى صرامة عصبية :

ـ ولكن زملاءنا فى الأعماق لن يتجمّدوا بدورهم .. إنهم يحتاجون لكل دقيقة نهدرها هنا ، والهواء المتبقى لديهم سينفد ، خلال أقل من نصف الساعة ، كما يقول خبراء الإنقاذ معنا .

التفت إليه (نور) ، قائلاً :

ـ فلنرسل الغواص الآلى فورًا .

استدار الكل إليه بحركة واحدة ، وقال مساعد القبطان فى توتر :

ـ وهل تعتقد أنهم سيسمحون بهذا ؟!

أجابه (نور) فى حزم :

ـ إننا لانعرف من ، أو ماذا نواجه بالضبط ، ولكن فى كل الأحوال ، لا يمكنك حسم الأمر ، إلا بتجربة مباشرة .

همّ مساعد القبطان بقول شىء ما ، ولكن القبطان نفسه تدخّل ، قائلاً فى حزم :

ـ أنا أوافقك على هذا .

ثم التفت إلى مساعده ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ قل للرجال إننا سنرسل الغوّاص الآلى فورًا ، وأريد توصيل الكاميرا المثبتة فيه بكابل طويل يكفى لأن نتابع كل ما يلتقطه فى الأعماق لحظة فلحظة (*).

(★) الإشارات اللاسلكية لا تنتقل فى الوسط المائى .

قال المساعد فى توتر :

ـ ولكن يا سيّدى ..

قاطعه القبطان بصيحة هادرة :

ـ نفذ الأوامر .

زفر الرجل فى توتر ، وقال :

ـ كما تأمر يا قبطان .

أسرع المساعد لتنفيذ الأمر ، فى حين التفت القبطان إلى (نور) وفريقه ، وسأل فى توتر :

ـ وماذا عنكم أيها السادة ؟! هل توصلتم إلى شىء ؟!

أجابته (سلوى) فى سرعة :

ـ الموقف ما زال يحمل الكثير من الغموض ؛ فتلك المركبات ظهرت بغتة فى نطاق الرؤية ، ولم يتم رصدها وهى تتجه نحو المدمرة ، وهذا أمر محيّر للغاية ، إذ إنها تبدو كما لو ... كما لو ....

أكمل (نور) فى حزم :

ـ كما لو أنها قد برزت من العدم .

التقى حاجبا القبطان فى شدة ، وهو يتمتم :

ـ من العدم ؟! أى قول هذا ؟! لاشىء يبرز من العدم .

قال (رمزى) فى سرعة :

ـ لا شىء نعرفه .

استدار إليه القبطان فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ اسمع يا هذا .. إننا لن نتحدَّث هنا عن تلك الخزعبلات ، الخاصة بمخلوقات الكواكب الأخرى .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ تلك الخزعبلات احتلَّت يومًا كوكبنا ، منذ بضعة أعوام يا سيِّدى[*].

لوَّح القبطان بذراعه ، هاتفًا :

(★) راجع قصة (الاحتلال) .. المغامرة رقم ٧٦

ـ هذا لا يعنى أن ننسب إليها كل ما تعجز عن فهمه أو تفسيره .

غمغم (نور) ، وهو يستعيد تفكيره العميق :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار بسبَّابته ، مستطردًا :

ـ لذا ، فنحن بحاجة لمعرفة ما سيجده الغوَّاص الآلى ، فى الأعماق .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى برز مساعد القبطان ، قائلاً فى انفعال ، جعله يلهث على نحو عجيب ، كما لو أنه قد انتهى من الركض ، حول ملعب كرة قدم :

ـ لقد أطلقنا الغوَّاص الآلى .

أسرعت (سلوى) تضغط أزرار جهازها ، قائلة فى اهتمام :

ـ أظننا نستطيع التقاط ما يبثه هنا .

التفَّ الكل حول شاشة جهازها ، التى نقلت صورة

أسرعت (سلوى) تضغط أزرار جهازها ، قائلة فى اهتمام :
ـ أظننا نستطيع التقاط ما يبثه هنا ..

البحر ، التى تنقلها تلك الكاميرا الحسَّاسة ، المثبتة فى جسم الغوَّاص الآلى فقال (أكرم) فى اهتمام ، مشوب بالعصبية كعادته :

ـ إنها لم تعترض طريقه .

قالها ، وهو يشير إلى المركبات الخمس المجهولة ، التى ظلَّت جامدة ساكنة ، على عمق مائتى متر ، تحت سطح البحر ، والغوَّاص الآلى يتجاوزها فى هدوء ، وهو يغوص فى أعماق البحر بسرعة ، حاملاً مجموعة من الأدوات اللازمة لعملية انتشال (ب . ن ـ ١٠٣)

وفى اهتمام مترقِّب ، قال القبطان :

ـ الغوَّاص الآلى لن يكتفى برصد ما يحدث فحسب ، وإنما يحمل معه ثمان بالونات خاصة ، نُطلق عليها اسم (بانتومات) ، وهى معدَّة بحيث يتم تثبيتها فى حلقات خاصة بجسم الغوَّاصة الغارقة ، ثم ملؤها بالهواء ، لتحمل الغوَّاصة إلى السطح(*).

(★) وسيلة إنقاذ فعلية للغواصات والمراكب الغارقة .

ثم زفر فى عصبية ، قليلاً :

ـ المهم أن نفعل هذا فى الوقت المناسب .

قال (نور) فى حزم :

ـ بل المهم أن يكون لهذا فائدة .

التفت إليه القبطان ومساعده بحركة مستنكرة ، ولكنه تابع بنفس الحزم :

ـ فنحن ما زلنا نجهل ما يحدث بأسفل .

بدا التوتر على مساعد القبطان ، الذى لم ترق له كلمات (نور) فى حين أومأ القبطان نفسه برأسه متفهمًا ، وغمغم :

ـ ها نحن أولاء نتابع .

أعادت عبارته الصمت إلى المكان ، والكل يتابع حركة الغوّاص الآلى ، وهو يغوص فى الأعماق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم ظهرت (ب . ن ـ ١٠٣) ، وهى ترقد فى الأعماق ..

واتجه الغوّاص الآلى نحوها مباشرة ..

وفى اهتمام بالغ ، راقب الكل ما تنقله آلة التصوير ، وهو يثبت (البانتومات) ، على جانبى الغوّاصة ، و ...

وفجأة ، اخترق شىء ما الغوّاصة ، من الداخل إلى الخارج ..

أو بتعبير أدق : عبرها ..

واتسعت عيون الكل فى آن واحد ، وهم يحدقّون فى شاشة جهاز الرصد ، التى تنقل ما تلتقطه كاميرا الغواص الآلى فى الأعماق ..

وشهقت (سلوى) فى شىء من الذعر والذهول ..

فما نقلته الكاميرا كان مشهدًا رهيبًا بحق ..

وبكل المقاييس ..

* * *

هتف رئيس الجمهورية بالكلمة فى ذهول ، وهو يحدّق فى وجه الكولونيل الروسى ، الذى أومأ برأسه مؤيّدًا ومؤكدًا ، قبل أن يقول :

ـ نعم يا سادة .. أشباح .. الغوّاصون الذين هبطوا لإنقاذ بحارتنا من (كورسيك) فوجئوا بأشباح مسلّحة ، تدخل وتخرج من الغوّاصة الغارقة ، عبر جدرانها القوية ، كما لو أنهم مجرّد أطياف هولوجرامية .

قال (أمجد) فى توتر :

ـ ولماذا لا تكون كذلك بالفعل ؟!

أجابه (بيرجانوف) فى سرعة :

ـ لأنها استخدمت أسلحتها .

تبادل الرئيس و (أمجد) نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يتساءل الأخير فى حزم :

ـ هل حاولتم البحث عن خدعة ما ؟!

أومأ الروسى برأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ بكل الوسائل المتاحة والممكنة ، قبل أن نطلب تعاون جهات أجنبية .

عاد الرئيس يتبادل نفس النظرة مع (أمجد) ، قبل أن يسأل :

ـ وما الذى كانت تهدف إليه تلك الأشباح ، من عبورها جدران غواصتكم النووية ، على هذا النحو ؟!

هزّ الروسى رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لم يعثر خبراؤنا على التفسير أبدًا .

ثم صمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن أحد الخبراء فوق النفسيين وضع تفسيرًا ، لم يستسغه القادة العسكريون قط .

سأله (أمجد) :

ـ وما هو ؟!

صمت الروسى فترة أطول هذه المرة ، ثم قال فى حزم متوتر :

- إنها كانت تختطف أرواح البحَّارة .

ارتفع حاجبا الرئيس فى دهشـة ، ثم عادا ينعقدان فى استنكار ، فـى حين تسلَّلت ابتسـامة إلـى شـفتى (أمجد) ، وهو يقول :

- رأى طريف ، ولكنه لا يتفق مع دياناتنا وعقيدتنا يا كولونيل ، ثم إنه لا يتفق حتى مع المنطق الطبيعى للأشياء ، فحتى لو افترضنا أن رأيه له أدنى احتمـال للصحة ، فأين ذهبت أجساد البحارة ؟!

سأله الروسى بصرامة مفاجئة :

- وأين ذهبت مركبتكم الإنقاذية (شارك) ؟!

مطَّ الرئيس شفتيه ، وهو يتراجع فى مقعده ، فـى حين أجابه (أمجد) بصرامة مماثلة :

- هذا أمر آخر .

هزَّ الروسى رأسه ، قائلاً :

- بل هو الأمر ذاته يا رجل .. حادث غوَّاصة غامض ،

ثم يختفى كل شىء ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر .

أشار (أمجد) بسبَّابته ، وهو يقول فى حزم :

- خطأ يا كولونيل .. ففى حادثتكم لم يختف سـوى البشر فحسب ، أما عندنا ، فقد اختفت مركبة غوص كاملة ، بكل ما عليها ، ومن عليها .

بدا الروسى شديد العصبية ، وهو يقول :

- هذا يعنى أنهم يتطوَّرون .

ثم لوَّح بيده ، مضيفًا :

- ففـى حادثتنـا ، حاصروا مدمراتنـا وغوَّاصـاتنا كلها بمركبتين من مراكبهم المجهولة فحسب .

شدَّ (أمجد) قامته ، وهو يقول :

- عندما تحتاج إلى قـوة أكبر ، لمواجهـة خصوم أقل ، فهذا يعنى أنك تتدهور ، لا تتطوَّر .

قال الروسى فى حدة :

- هذا منطق أمنى تقليدى ، ينطبق على عالمنا وحده .

قال (أمجد) فى صرامة :

- بل هو منطق أمنى عام ، ينطبق فى كل الأحوال .

اعتدل الرئيس ، قائلاً :

- هذه ليست القضية الآن .. فلنناقش النظم الأمنية فيما بعد ، أما فى هذه اللحظة ، فالسؤال الرئيسى الذى يطرح نفسه بشدة ، هو : ماذا سيحدث فى الساعات القادمة ؟!

أجابه (أمجد) فى سرعة ، وكأنما كان ينتظر هذا السؤال ويتوقّعه :

- لابد أوّلاً أن نرسل كل ما لدينا من معلومات إلى المقدّم (نور الدين) ؛ ليشاركنا بعبقريته وعقله الراجح ، فى مواجهة هذا الأمر الرهيب .

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

- افعل فورًا .

اتجه (أمجد) مباشرة ، إلى جهاز الاتصال الخاص

بمكتب الرئيس ، والمتصل بالأقمار الصناعية مباشرة ؛ ليبث رسالة شاملة إلى (نور) ، على المدمرة (فجر) ، عبر جهاز اتصال (سلوى) الخاص ، فى حين بدا الكولونيل (بيرجانوف) أكثر عصبية ، وهو يقول :

- معذرة أيها السادة ، ولكننى أظنكم تضيعون الوقت دون طائل .

سأله الرئيس فى اهتمام متوتر :

- وما الذى ينبغى أن نفعله ، من وجهة نظرك ؟!

أجابه فى عصبية أكثر :

- أن تأمروا حملة الإنقاذ بالعودة فورًا .

هتف الرئيس فى استنكار :

- ونتخلّى عن طاقم (ب . ن - ١٠٣) ؟!

هزّ (بيرجانوف) رأسه نفيًا ، وقال فى حدة :

- لقد انتهى أمرهم .. لن يمكنكم إنقاذهم أبدًا ، مهما فعلتم .

صاح به الرئيس فى غضب :

ـ فى بلدنا ، لا نستسلم بهذه السهولة يا كولونيل .

قال (بيرجانوف) ، فى عصبية بالغة :

ـ ليس استسلامًا ، ولكنه ثقة فيما ستنتهى إليه الأمور ، بسبب تجربة سابقة ، فى المضمار نفسه .

بدا الغضب أكثر على الرئيس ، وهمَّ بقول شىء ما ، لولا أن التفت (أمجد) إلى الرجلين ، وقال بتوتر ملحوظ :

ـ هذا أمر لم يحدث حتمًا ، خلال تجربة غوّاصتكم يا كولونيل !

التفت إليه الروسى بعينين متسائلتين ، فى حين قال الرئيس فى حذر قلق :

ـ أى أمر هذا يا (أمجد) ؟!

أشار (أمجد) إلى جهاز الاتصال ، وهو يجيب ، فى عصبية واضحة :

ـ الاتصال بالمدمرة (فجر) لم يعد متاحًا ، حتى باستخدام جهاز (سلوى) الخاص .. لقد انقطع الاتصال بها .. تمامًا .

وكانت مفاجأة جديدة ..

وعنيفة ..

* * *

حدَّق (أكرم) فى شاشة الرصد ، التى تنقل صور تلك الأشباح ، التى تعبر جدار الغوّاصة الغارقة ، دخولاً وخروجًا ، على نحو مذهل ، قبل أن يهتف ، بكل عصبيةّ الدنيا :

ـ هذا مستحيل ! إنها مجرَّد صور هولوجرامية .. لا شىء آخر يمكن أن يعبر الجدران المعدنية الصلبة بهذا اليسر .

قال (نور) فى توتر :

ـ دعنا نتجاهل هذا الآن ، وليواصل الغوّاص الآلى مهمته ؛ لانتشال (ب . ن ـ ١٠٣) أولاً ، وبعدها سنحاول تحليل كل ما بثَّته آلته التصويرية .

قال القبطان فى صرامة :

ـ أنت على حق .

ثم ضغط زر جهاز الاتصال الداخلى ، ليضيف بلهجة آمرة حازمة :

ـ ابدأ عملية ملء (البانتومات) فورًا ؛ لانتشال (ب . ن ـ ١٠٣) .

لم يكد مهندس الآليات بالمدمرة يتلقّى الأمر ، حتى جرت أصابعه على لوحة أزرار الكمبيوتر ، ليمكنه نقله عبر الكابل الخاص ، المتصل بالغوّاص الآلى ، إلى برنامجه المحدود ..

أما (سلوى) ، فقد حدّقت مرة أخرى فى الشاشة ، متسائلة :

ـ لو أنها أشباح كما تبدو ، فلماذا تحتاج إلى أجهزة غوص فى الأعماق ؟!

كان سؤالها منطقيًا للغاية ، فتلك الأشباح ، التى تحوم حول (ب . ن ـ ١٠٣) ، وتعبر جدارها طوال

الوقت ، كانت ذات أجساد بشرية التكوين ، وترتدى ما يشبه ملابس الضفادع البشرية المتطوّرة ، ورءوسها تختفى داخل كرة زجاجية ، ذات سطح عاكس داكن ..

وبكل اهتمامه ، غمغم (نور) :

ـ نعم .. لماذا تحتاج إليها ؟!

لم يكد ينطق عبارته ، حتى استدار أحد الأشباح إلى الغوّاص الآلى ، وكأنه يراه لأوّل مرة ، على الرغم من ضوء مصباحه القوى ، الذى يغمر كل شىء ..

ثم فجأة ، اتجه نحوه ..

ورفع فوهة سلاح عجيب يحمله ، إلى عدسة آلة التصوير مباشرة ..

وفى توتر بالغ ، هتف (أكرم) :

ـ يا إلهى ! هل تعتقدون أنه سيـ ....

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلق ما يشبه الفقاعة ، بلون أرجوانى داكن ، من فوهة سلاح ذلك الشبح ، واتجه بسرعة مذهلة نحو الشاشة ، و ....

وانقطع المشهد دفعة واحدة ..

وفى انزعاج شديد ، غمغم (رمزى) :

ـ لقد حطِّم آلة التصوير .

التقط مساعد القبطان جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ليت الأمر يقتصر على هذا .

قالها ، ثم سأل مهندس الآليات ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ قل لى يا رجل : هل أرسلت الإشارة بالفعل ؟!

مضت لحظة من الصمت ، وكأنما لا يجد المهندس ما يقوله ، قبل أن يأتى صوته مرتجفًا ، بكل ما احتشد فيه من توتر ، وهو يقول :

ـ لقد انقطع الاتصال بالغوّاص الآلى .

تفجّرت دهشة مذعورة فى وجوه الجميع ، فيما عدا (نور) والقبطان ، اللذين تبادلا نظرة متوترة للغاية ، قبل

أن يضغط الأخير زر جهاز الاتصال الداخلى ، وهتف :

ـ اسحب الغوّاص الآلى فورًا .

أتاه صوت المهندس ، وهو يجيب ، بنفس التوتر :

ـ الكابل ينسحب بخفة شديدة ، توحى بأن الغوّاص الآلى لم يعد يتصل به .

غمغم (نور) :

ـ هذا ما خشيته .

وقال (رمزى) :

ـ رباه ! لقد استولوا على الغوّاص الآلى أيضًا .

أما مساعد القبطان ، فهتف فى عصبية :

ـ هذا يعنى أن آخر أمل ؛ لإنقاذ الزملاء فى الأعماق ، قد انتهى تمامًا .

أجابه (أكرم) فى حزم صارم :

ـ ليس بعد .

ثم التفت إلى القبطان ، يسأله :

ـ ماذا كان ينبغى أن يفعل الغوّاص الآلى ، بتلك (البانتومات) ؟!

أجابه القبطان فى حذر :

ـ كل وحدة منها تتصل بأسطوانة هواء مضغوط ، ينبغى فتح صمامها ؛ لتمتلئ بالهواء ، وترتفع بالغواصة إلى السطح .

نزع (أكرم) سترته ، وهو يقول :

ـ عظيم .. أتعشّم أن تكون لديكم حلة غوص إضافية ، تصلح لهذا العمق .

لوّح (نور) بسبّابته وإبهامه ، قائلاً فى حزم :

ـ بل اثنتان .

شهقت (سلوى) ، ورفعت كفيها إلى وجهها ، هاتفة :

ـ يا إلهى .. (نور) .. (أكرم) ؟!

أشاح (نور) بوجهه ، وهو يسأل القبطان فى حزم :

ـ هل ينبغى أن نضيع دقائق ثمينة أخرى ، فى مناقشة أمر كهذا ؟!

انعقد حاجبا القبطان فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كلا .

ثم التفت إلى مساعده ، قائلاً :

ـ هيا .. ساعدهما على الغوص إلى الأعماق ، وبأسرع وسيلة ممكنة .

تردّد المساعد لحظة ، قبل أن يندفع قائلاً :

ـ سيّدى القبطان .. هذا يحتاج إلى خبرة بالغوص ، و ....

قاطعه القبطان بصيحة هادرة :

ـ نفذ الأمر يا رجل .. إنهما رجلا مخابرات ، وهذا يكفى .. هيا .

أسرع مساعد القبطان لتنفيذ الأمر ، وقـال لـ (نور) و(أكرم) :

- اتبعانى .

انطلق (أكرم) خلفه على الفور ، فى حين هتفت (سلوى) بـ (نور) :

- (نور) .

استدار إليها بعينين متوترتين ، فمسحت دموعها ، مغمغمة :

- ارع نفسك جيدًا .

حاول أن يبتسم ، وهو يغمغم :

- سأبذل قصارى جهدى .

تابعه القبطان ببصره ، حتى اختفى مع (أكرم) والمساعد ، ثم التفت إلى (سلوى) ، قائلاً :

- زوجك بطل يا سيدتى ، ويعرف واجبه جيدًا .

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تترك لدموعها العنان مرة أخرى ، قائلة :

- أعلم هذا ياسيدى .. أعلم هذا .. أما ما لا أعلمه ، فهو جواب ذلك السؤال ، الذى ينهش كل ذرة من كيانى بلا رحمة ، كلما خرج فى واحدة من هذه المهام الرهيبة .

ورفعت رأسها ، على الرغم من دموعها ، التى تنهمر فى غزارة ، لتكمل :

- هل سأراه مرة أخرى ؟!

نعم يا (سلوى) هذا هو السؤال ..

هل ؟!

* * *

كمحترفين حقيقيين ، وعلى الرغم من علمهما بما ينتظرهما فى الأعماق ، ومن حصار المدمرة (فجر) بخمسة مركبات غوص مجهولة من حولهما ، وثب

وثب (نور) و(أكرم) إلى البحر ، فى ظلام الليل ، وأشعل كل منهما المصباح الخاص بالرؤية الليلية

(نور) و(أكرم) إلى البحر ، فى ظلام الليل ، وأشعل كل منهما المصباح الخاص بالرؤية الليلية ، فى خوذة زى الغوص المتطوّر الذى يرتديانه ، ثم راحا يغوصان ..

ويغوصان ..

ويغوصان ..

لم تكن لديهما أجهزة تصوير ، أو وسيلة للاتصال بالسطح ، لذا فقد كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة ، لمتابعة غوصهما ، هى جهاز الرصد فى المدمرة (فجر) ، والذى راحت (سلوى) تتابع شاشته فى اهتمام ، وهى تسأل فى توتر :

ـ ترى هل ستسمح لهم بالوصول إلى الغوّاصة ؟!

سألها القبطان :

ـ من تعنين ؟!

لوّحت بيدها ، مجيبة فى عصبية :

ـ الأشباح بالطبع .

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ كنت أظنك شخصية علمية ، إلى الحد الذى يمنعك من تصديق هذه السخافات .

زفرت فى توتر ، قائلة :

ـ إنه مجرَّد مصطلح لتوصيفهم شكليًّا ، حتى نجد تفسيرًا علميًّا لماهيتهم .

اندفع مساعد القبطان يقول :

ـ إنهم ينتمون إلى تلك المركبات الخمس المجهولة حتمًا .

قال (رمزى) فى سرعة :

ـ على أى نحو ؟!

سأله الرجل فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار (رمزى) بيده ، قائلاً فى هدوء :

ـ أعنى أهم قادة تلك المركبات المجهولة ، أم أحد أسلحتها ، المسئولة عن إرهاب الخصوم ؟!

هزَّ القبطان رأسه ، قائلاً :

ـ أنتم يا رجال المخابرات العلمية ، تحولون كل أمر إلى ....

قاطعته شهقة من (سلوى) ، جعلتهم جميعًا يلتفتون إليها فى توتر ، وهتف بها القبطان :

ـ ماذا حدث ؟!

تراجعت بعينين مذعورتين ، وهى تشير إلى شاشة جهازها الخاص ، قائلة بصوت يصعب تفسير كلماته ، من شدة ارتجافه وانفعاله :

ـ الجهاز .. لقد توقَّف عن العمل .. كل الاتصالات انقطعت دفعة واحدة .. كلها ..

اندفع القبطان نحوها ، هاتفًا فى ارتياع :

ـ ماذا تعنين ؟!

حدّقت فى الجهاز ، مجيبة :

ـ أعنى أنه لم تعد هناك وسيلة واحدة ، لمعرفة ما يحدث هناك .

ثم أدارت إليه عينين ملؤهما الهلع والرعب واللوعة ، وهى تضيف بصوت ، حمّلته كل انفعال ومرارة الدنيا :

ـ فى الأعماق .

وانتقل انفعالها إلى الكل ..

بلا استثناء .

* * *

٥ ـ صراع الأعماق ..

حدّق (ياسر) ، المصوّر الأوّل لـ (أنباء الفيديو) ، فى وجه (مشيرة محفوظ) ، بكل دهشة واستنكار الدنيا ، قبل أن يهتف :

ـ تريدين التجسّس على تحركات الأسطول المصرى ؟! هل تدركين ما الذى يعنيه هذا ؟! إننا لو سقطنا فى قبضتهم ، فسيتراوح مصيرنا بين الأشغال الشاقة المؤبّدة والإعدام .

أجابته فى حزم وإصرار :

ـ لا يوجد إعدام .. القانون المصرى لايوقّع عقوبة الإعدام ، إلا فى حالات الحروب فحسب(*) .

هتف :

ـ وماذا عن الأشغال الشاقة المؤبّدة ؟! هل تعتبرينها عقوبة هينة ؟!

(*) حقيقة .

هبّت من مقعدها ، قائلة فى عصبية :

ـ اسمع يا (ياسر) .. هذا الأمر مهم للغاية بالنسبة لى .. أعنى بالنسبة للجريدة .. لابد أن أعلم ما الذى يحدث هناك ؟! ما الذى استدعى وجود (نور) وفريقه ، ضمن طاقم إنقاذ غوّاصة غارقة ؟!

حدّق فى وجهها مرة أخرى ، قبل أن يهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل !

التقى حاجباها فى غضب ، وهى تقول فى حدة :

ـ فليكن .. لقد كنت أمنحك فرصة عمرك ؛ لتصبح أشهر مصوّر صحفى ، فى العالم أجمع .

بدا التردّد على وجهه ، فتابعت فى صرامة :

ـ سأمنح هذه الفرصة (مبارز) .

لم يكد يسمع اسم منافسه الأوّل ، فى عالم التصوير ، حتى انتفض جسده ، وهتف فى حدة :

ـ مستحيل !

تألّقت عيناها ، وقد أدركت أنها أحسنت إصابة هدفها ، ولكنه عاد يتراجع ، وهو يقول فى توتر :

ـ ولكنهم سيكشفون أمرنا حتمًا .

هزّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ كلاّ .. لقد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة ، وسيقودنا بحار محترف ، فى زورق مزوّد بكاتم للصوت ، من تلك الزوارق ماسية التصميم ، التى يستحيل كشفها بأجهزة الرادار العادية ، وسننطلق إلى هناك بعد نصف ساعة من الآن ، أى فى قلب الليل .

والتقطت نفسًا عميقًا ؛ لتهدئة أعصابها وانفعالاتها ، قبل أن تتابع فى حزم :

ـ اطمئن .. لن ينكشف أمرنا أبدًا .

بدا عليه التردّد مرة أخرى ، فصاحت به فى صرامة :

ـ أريد قرارًا حازمًا .. وفوريًّا .

أطلق زفرة ملتهبة من أعمق أعماقه ، قبل أن يقول فى استسلام :

ـ فليكن يا سيدة (مشيرة) .. سآتى معك .

تضاعف تألق عينيها ، وسيطرت فى صعوبة على ابتسامة ، جاهدت للارتسام على شفتيها ، لتحافظ على لهجتها الصارمة الحازمة ، وهى تقول :

ـ استعد إذن .

ومن أعمق أعماقها ، تصاعد شعور ظافر قوى ، على الرغم من أنها تجهل ما ينتظرها هناك ،فى عرض البحر ..

تجهله تماما ..

* * *

الظلام كان يحيط بهما من كل جانب ، وأجهزة الرؤية الليلية تكشف الطريق أمامهما فى صعوبة ، لمائة متر على الأكثر ، و(نور) و(أكرم) يغوصان فى البحر ..

ويغوصان ..

ويغوصان ..

لم يدر أحدهما كم استغرقت عملية الغوص هذه ، ولكنها بدت لكليهما أشبه بدهر كامل ، قبل أن يظهر القاع ..

وتظهر الغوّاصة النووية الغارقة ..

لم يكن الغوّاص الآلى هناك ..

أو حتى الأشباح ..

أو أى شىء آخر يتحرّك ..

فقط غوّاصة رابضة فى الأعماق ، وسط ظلام وسكون تامين ، فيما عدا بعض الأسماك الكبيرة ، التى تسبح هنا وهناك ..

ولدقيقة أو يزيد ، راح الاثنان يتطلعان حولهما ، فى توتر حذر ، قبل أن يشير (نور) إلى (ب . ن ـ ١٠٣) ، ويومئ برأسه ، فى إشارة فهمها (أكرم) على الفور ، فاتجه معه نحو الغوّاصة الغارقة ..

كانت (البانتومات) كلها مثبتة فى مواضعها ، وأسطوانات الهواء المضغوط ما زالت مرتبطة بها ، فاتجه نحوها الاثنان ، ثم افترقا فى اتجاهين معاكسين ، توفيرًا للوقت والجهد ..

كانا يعلمان أن كل دقيقة لها ثمنها ، فى موقف عسير كهذا ، وأن انتشال الغوّاصة بسرعة أكبر ، قد يعنى إنقاذ حياة جديدة ؛ لذا فقد تحركا بأقصى سرعة ممكنة ، وهما يفتحان صمامات أسطوانات الهواء المضغوط ، واحدة بعد الأخرى ..

وبالفعل ، بدأت (ب . ن - ١٠٣) ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

فى البداية ، تصاعد جسمها الضخم فى بطء ، ثم راحت سرعة صعوده تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

و ...

وفجأة ، سطع فى الأعماق ضوء قوى ..

ضوء غمر جسم الغوّاصة ، وجسدى (نور) و(أكرم) ، وأغشى عيونهما ، التى تبصر عبر أجهزة رؤية ليلية متقدّمة ..

ضوء ، بلغ من سطوعه أن عبر ما يزيد على ألف متر من مياه البحر ، ليضىء كل المنطقة المحيطة بالمدمرة (فجر) ، على نحو جعل (سلوى) تهتف ، بكل رعب وارتياع الدنيا :

- يا إلهى ! (نور) .. (أكرم) !

تلفّت القبطان حوله ، فى توتر بالغ ، وهو يهتف :

- رباه ! ماذا يحدث هنا ؟! ماذا يحدث هنا ؟!

كان يشعر بعجز هائل ، بعدما انقطعت كل الاتصالات فى المدمرة ، وزوارق الإنقاذ التابعة لها ، ولم تعد هناك وسيلة واحدة لسبر الأعماق ، ومعرفة ورصد ما يدور بها ، ولكنه - وعلى الرغم من هذا - انطلق يعدو نحو سطح المدمرة ، حيث احتشد بحارتها ، يحدقون فى خوف مرتجف ، فى سطح البحر ، على الرغم من تلاشى ذلك الوميض القوى ..

وما إن صعد القبطان إلى السطح ، حتى هتف فى صرامة :

ـ كل فى موقعه .

أجابه أحد الضباط ، فى توتر بلا حدود :

ـ سيِّدى .. إننا نجهل حتى ما نواجهه .

صاح به القبطان ، فى صرامة أكثر :

ـ هذا أكثر مدعاة ، لأن ننتظم ونتخذ مواقعنا .

شدَّ الضابط قامته ، وأدى التحية العسكرية فى قوة واحترام ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا سيِّدى .

ثم استدار يهتف بالبحارة :

ـ كل فى موقعه .. أسرعوا .

انطلق البحارة إلى موقعهم ، فى حزم صارم ، وقد انتقل إليهم حسم قبطانهم وضباطهم ، و ...

وفجأة ، أصدرت المركبات الخمس المجهولة ، التى تحيط بالمدمرة (فجر) ، والزوارق المحيطة بها هديرًا قويًا ، استغرق لحظة واحدة ، ثم تحوَّل إلى صوت خافت منتظم ، فتجمَّد الجميع فى أماكنهم ، وقال مساعد القبطان فى توتر :

ـ إنها تتحرَّك .

انعقد حاجبا القبطان ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أو تتأهَّب .

ثم اتجه فى حزم إلى كابينة القيادة ، واستخدم مكبرًا صوتيًا بدلاً من أجهزة الاتصال الداخلية ، وهو يقول :

ـ كل زوارق الطوربيدات تستعد .. استخدموا مناظير الأعماق المباشرة ، المزوَّدة بوسائل الرؤية الليلية ، عند مقدِّمة المدمرة ، ومؤخرتها ، وجانبيها .. أريد تقريرًا بصريًا كل دقيقتين .

قال مساعده فى قلق :

ـ سيِّدى .. هل تعتقد أنه من الحكمة أن نقاتل خصمًا نجهله ، ونجهل استعداداته القتالية ؟!

أجابه القبطان فى حزم صارم :

- كلا ، ولكن من العار أن نستسلم أيضًا لخصم ، نجهل ماهيته ، واستعداداته القتالية .

غمغم المساعد ، فى صوت خافت :

- ولكن ..

ولكنه بتر حديثه عند هذا الحد ، ولم يكمل عبارته أبدًا ، فى حين راح البحارة ينفذون أوامر القبطان ، وبدأت عمليات المراقبة البصرية للأعماق ، عبر المناظير الخاصة ، التى لا يمتدّ تأثيرها لأكثر من مائة متر فى الأعماق ، و ...

« المركبات الخمس تتحرّك .. »

هتف أحد مراقبى السطح بالعبارة فى توتر ، ولم تكد تبلغ مسامع القبطان ، حتى صاح عبر مكبّر الصوت القوى :

- زوارق الطوربيدات تستعد للإطلاق .

غمغم المساعد ، فى عصبية شديدة :

- سيّدى القبطان !

ولكن القبطان تابع بنفس اللهجة الآمرة الحازمة :

- حدّد الأهداف .

كانت الخطوة التالية هى إطلاق الطوربيدات نحو أهدافها مباشرة ، ولكن أحد المراقبين صاح ، قبل أن يصدر القبطان هذا الأمر الأخير :

- إنها تبتعد .

التقى حاجبا القبطان ، وهو يردّد فى دهشة :

- تبتعد ؟!

كان هذا الانسحاب المباغت يدهشه بالفعل ؛ إذ إنه لم يجد له تفسيرًا منطقيًا ، أو ..

« الغوّاصة ترتفع إلى السطح .. »

هتف أحد مراقبى مناظير الأعماق بالعبارة ، ليقتحم أفكار القبطان مباشرة ، قبل أن يضيف فى عصبية :

ـ إنها ترتفع نحونا .

اتسعت عينا المساعد عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ نحونا .. يا إلهى !

أما القبطان ، فقد راوده شعور بالتوتر والعجز ، مع غياب وسائل الرصد والتوجيه ، وعلى الرغم من هذا فقد تماسكت كل ذرة من كيانه ، وهو يهتف بمراقبى المناظير :

ـ حدد السرعة والاتجاه والمسافة .

هتف أحدهم على الفور :

ـ سبعون مترًا .. ثمان عقد بحرية فى الساعة .. يسار الدفة .

صاح القبطان على الفور :

ـ مقدِّمة المدمرة .. عشر درجات إلى اليسار .. بأقصى سرعة .

كانت مناورة بارعة سريعة ، فدوران المقدِّمة إلى

اليسار يدفع الدفة إلى اليمين ، مع مؤخرة المدمرة ، ليبعدها عن جسم الغوَّاصة الصاعدة ..

ولكنه صراع مع الوقت ..

الوقت الذى تستغرقه المدمرة ، للدوران إلى اليسار ..

وسرعة صعود الغوَّاصة ، التى تحملها (البانتومات) الممتلئة بالهواء من الأعماق ..

ولقد سرى التوتر فى كيان كل شخص ، على سطح المدمرة (فجر) ، والمقدِّمة تميل ..

وتميل ..

وتميل ..

والغوَّاصة (ب . ن ـ ١٠٣) ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

ومراقبو مناظير الأعماق يتابعون ارتفاعها ، هاتفين ، بأكبر قدر ممكن من التوتر :

- عشرون مترًا .. خمسة عشر مترًا .. عشرة أمتار .

وانعقد حاجبا القبطان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وتوترت كل ذرة فى كيانه ..

ولكن المدمرة تجاوزت مسار الغوّاصة الصاعدة ..

أو هكذا خُيّل للجميع ، قبل أن يهتف مراقب المؤخرة ، وهو يتراجع فى ذعر :

- لم ننجح .

مع آخر حروف كلماته ، برز برج الغوّاصة النووية (ب . ن - ١٠٣) فوق سطح الماء ، على مسافة قصيرة من جانب المدمرة الأيسر ..

ثم ارتطمت مقدمتها بالدفة ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

« لابد أن تذهب بنفسك يا (أمجد) .. »

قالها رئيس الجمهورية فى حزم ، جعل (أمجد) يعقد حاجبيه ، قائلاً فى توتر ملحوظ :

- (نور) وفريقه هناك يا سيادة الرئيس ، ويمكنهم أن يتولوا الأمر بأنفسهم ، كما فعلوا عشرات المرات من قبل ، ولست أجد داعيًا لتدخلى مباشرة .

قال الرئيس فى صرامة :

- إننا لا ندرى حتى ما إذا كانوا هناك أم لا .. لقد رصدت أقمارنا الصناعية وميضًا آخر ، يشبه ذلك الذى تم رصده ، قبل اختفاء مركبة الغوص (شارك) ، والاتصالات كلها انقطعت بالمدمرة ، على الرغم من وجود أفراد فريق المخابرات العلمية ، وأجهزتهم الخاصة ، التى تعتبر أكثر الأجهزة الإليكترونية تطورًا ، وهذا أمر شديد الخطورة ، وخاصة إذا ما ارتبط بمدمرة ، وزوارق طوربيد ، وغوّاصة نووية متطوّرة ، تعدّ درة أسطولنا البحرى .

ثم وضع يده على كتفه ، مضيفًا بصرامة أكثر :

ـ (أمجد) .. إننا أمام خطر مجهول ، يهدِّد أمن وسلامة (مصر) ، وربما العالم أجمع ، وعندما يصبح الأمر كذلك ، لا تعود هناك حواجز ، أو حساسيات .. هناك فقط (مصر) .. (مصر) أولًا ، وقبل كل شىء .. (مصر) التى أنجبتك ، والتى أقسمنا أن نبذل أرواحنا جميعًا من أجلها .

التقط (أمجد) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ لقد أقسمنا أن نحمى الحق والعدل ، وأن نبذل أرواحنا من أجلهما ، فى أى مكان من الدنيا .

تراجع الرئيس ، وقال فى حزم صارم :

ـ وها هو ذا الواجب يناديك يا (أمجد) .

عضّ (أمجد) شفتيه ، عاجزًا عن مواجهة منطق الرئيس الصائب ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ إنهم قادرون وحدهم ، على مواجهة ذلك الأمر هناك .

قال الرئيس فى سرعة :

ـ عظيم .. ماذا يضيرهم إذن ، لو انضمّ إليهم مقاتل جديد صنديد ، لايشق له غبار .

صمت (أمجد) تمامًا هذه المرة ، فابتسم الرئيس ، وربَّت على كتفه ، قائلًا :

ـ هيا .. اذهب لتعدّ ما تحتاج إليه ، وستحملك طوّافة الرياسة فور استعدادك ، إلى حيث غرقت (ب . ن ـ ١٠٣) ، وعندما تعود سالمًا ، بإذن اللّه (العلى القدير) سأعمل على أن تبدأ إجازتك فورًا ، وعلى أفضل وجه ممكن .

غمغم (أمجد) :

ـ أشكرك يا سيادة الرئيس .. أشكرك كثيرًا .

طوال الطريق إلى منزله ، استرخى (أمجد) فى المقعد الخلفى للسيارة الكبيرة، التى يقودها سائق الرئيس ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه أكثر من مرة ..

كل ذرة فى كيانه كانت ترغب فى اقتحام تلك القضية ؛ لأن غريزته أنبأته أنه أمام خطر داهم ، يهدّد وطنه ..

وربما العالم كله ..

ولأنه رجل مخابرات قديم محنّك ، فقد كان يثق كثيرًا بغريزة الشعور بالخطر ، التى تتكوّن وتكمن فى أعماق أى رجل أمن خبير ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه كان يشعر بالقلق ، من الذهاب إلى هناك ..

شىء لم يدر كنهه بالضبط ..

ولكنه ليس الخوف بالتأكيد ..

إنه شىء غامض مجهول ..

شىء يجعله يشعر بأن هذه العملية ستغيّر مسار حياته بأكمله ..

أو أنها ستضع نهاية لها ..

كل هذا منعه من الاسترخاء فى مقعده ، وسيارة الرياسة تتجه به نحو منزله ، مما جعل عقله المتوتر يستعيد ذكريات مؤلمة قديمة ..

ذكريات زواجه الأوّل ..

وفقده لابنه الوحيد ..

وزواجه الثانى ، من المخلوقة الوحيدة التى أحبها ، فى عمره كله ..

ثم فقده إياها أيضًا ، و ...

« وصلنا يا سيُد (أمجد) .. »

انتزعه حديث السائق من ذكرياته ، فاعتدل فى مقعده ، وتمتم فى آلية :

ـ عظيم .

وغادر السيارة ، وهو يضيف فى خفوت :

ـ انتظرنى .. سأجمع أشيائى الضرورية ، وأعود على الفور .

كان شارد الذهن إلى حد ما ، وهو يدلف إلى منزله ، وعلى الرغم من هذا فقد انطلق إنذار داخلى فى أعماقه ، جعله يستدير بحركة حادة نحو ركن الصالة ، وهو يسحب مسدسه بتلك السرعة المدهشة ، التى اشتهر بها فى حياته ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

فهناك ، فى ركن الصالة ، كان يقف شخص ما ..

أو شىء ما ..

جسم أشبه بالشبح ، يقف ممسكًا سلاحًا عجيبًا ، يصوبه إليه ، وهو يتطلّع إلى وجهه ببرود ، يحمل لمحة من الصرامة والمقت ..

وعلى الرغم من أن المشهد كله يتجاوز حدود إدراك البشر ، إلا أن (أمجد) لم يشعر بالخوف والتوتر ..

وإنما بالدهشة ..

دهشة بلغت حدًّا رهيبًا ، وهو يحدّق فى وجه ذلك الشبح ، قبل أن تمتزج الدهشة بشىء من اللهفة فى صوته ، وهو يهتف :

ـ أنت ؟!

أجابه ذلك الشبح ، بصوت حمل مقتًا بلا حدود ، وهو يرفع نحوه فوهة سلاحه العجيب الغريب :

ـ نعم .. هو أنا .

ومع قوله ، انطلقت من فوهة سلاحه فقاعة أرجوانية عجيبة ..

ولم يطلق (أمجد) رصاصة واحدة من مسدسه ..

وخارج المبنى ، فوجئ السائق بوميض قوى ، يسطع من نوافذ شقة (أمجد) ، فهتف فى ذعر ، وهو يشير إلى الحارس المرافق له :

ـ رباه ! ماذا يحدث ؟!

لم يكن الحارس بحاجة إلى هذا الهتاف ، فما إن

ومع قوله ، انطلقت من فوهة سلاحه فقاعة أرجوانية عجيبة ....
ولم يطلق (أمجد) رصاصة واحدة من مسدسه ..

سطع الضوء ، حتى سحب مسدســه ، وانطلق يعدو نحو منزل (أمجد) ، واقتحمه فى قوة ..

ولكن المنزل كان خاليًا تمامًا ..

ولم يكن هناك أثر لـ (أمجد صبحى) ..

أدنى أثر ..

* * *

حمل صوت مساعد القبطان كل توتر الدنيا ، وهـو يقول :

ـ الدفة تحطَّمت تمامًا ، وهنـاك إصابـة كبيرة فى مؤخـرة المدمـرة ، والرجـال يقومـون بفصل القطـاع المصاب فى قاع المدمرة ، حتى يتم إصلاحه ؛ خشية انـهياره المفاجئ .

مطَّ القبطان شفتيه ، مغمغمًا :

ـ وماذا عن (ب . ن ـ ١٠٣) ؟!

أجابه المساعد بتوتر أكثر :

ـ لقد حاولنا الاتصال بطاقمها ، عن طريق الطرقات المنتظمة على جدرانها الخارجية ، ولكننا لم نتلقَّ أية استجابة ، وقطاعاتها كلها مغلقة من الداخل بإحكام ، وهى مصمَّمة بحيث يستحيل اختراقها عنوة ، من قبل أى خصم ، لذا فالرجال يثقبون جسمها الآن ، بوساطة أشعة الليزر المطوَّرة ، لتوصيل الأكسجين إليها ، كمحاولة لإنقاذ من يمكن إنقاذه .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى عصبية :

ـ هذا لو أنه ما زال بداخلها أحياء .

عقد القبطان حاجبيه ، وقال :

ـ فلنأمل هذا .

سأله (رمزى) فى قلق عارم :

ـ وماذا عن (نور) و(أكرم) ؟! إنهما لم يصعدا مع الغوَّاصة ، ولا أثر لهما فى المنطقة ..

ثم اكتسب صوته رنة عصبية ، وهو يضيف :

ـ ولايبدو لى أن أحدًا يهتمّ بالأمر ، أو يبالى بغيابهما .

استدار إليه القبطان ، قائلاً فى صرامة :

ـ سيِّد (رمزى) .. منذ بدأت هذه العملية الغامضة ، فقدنا عددًا كبيرًا من الرجال ، وعددهم يفوق رفيقيكما عشرين مرة على الأقل ، وربما ليست لهم نفس الشهرة ، ولكنهم أيضًا بشر ، ولهم عندى نفس الأهمية .

قال (رمزى) فى عصبية :

ـ لا أحد يعترض على هذا ، ولكن لاتنس أن (نور) و(أكرم) قد جازفا بحياتيهما ؛ لإنقاذ طاقم الغوَّاصة الغارقة ، قبل أن ينفد مخزونهم من الهواء .

انتقلت عصبيته إلى القبطان ، وهو يلوِّح بيده ، صائحًا :

ـ وما الذى يمكننى أن أفعله من أجلهما ؟! كل شىء هنا متوقِّف ، على نحو مستفز .. أجهزة (السونار) ، والكمبيوتر ، والاتصالات ، حتىَ الجهاز المتطوِّر ، الذى أحضرتموه معكم .. اتصالنا بالأقمار الصناعية أيضًا انقطع ، فما الذى يمكن أن أفعله من أجلهما باللّه عليك ؟!

حدّق فيه (رمزى) بشىء من الارتياع ، وقد أدرك أن الرجل محق تمامًا فيما يقول ..

فحتى هم ، بكل طاقة وإمكانيات المخابرات العلمية ، ليست لديهم وسيلة واحدة ، لمعرفة مصير (نور) و(أكرم) ، اللذين اختفيا ، وتلاشيا بلا أثر ..

فى الأعماق ..

وفى مرارة، عاد (رمزى) إلى تلك القاعة الصغيرة، التى تضمّ أجهزة (سلوى) ، التى بدت شاحبة ممتقعة ، وهى تدقّ أزرار الكمبيوتر ، فى محاولة لتشغيل جهاز رصد الأعماق ، وهى تردّد :

ـ اعمل بالله عليك .. اعمل ..

سألها (رمزى) :

ـ ألم تجدى وسيلة بعد ؟!

هزّت رأسها فى مرارة بلا حدود ، وهى تهتف :

ـ لا يوجد تفسير لما يحدث هنا !! إننى أجهل حتى

كيف ولماذا انقطعت الاتصالات على هذا النحو ! إننى استخدم شعاعًا مركزًا من الليزر ؛ لنقل الصوت والمعلومات ، إلى الأقمار الصناعية مباشرة ، وهذا لا يمكن اعتراضه أو احتجازه ، وفقًا للقواعد العلمية المعروفة ، ومن المستحيل أن ....

قاطعها أزيز مفاجئ ، انبعث من جهازها ، الذى أضيئت شاشته دفعة واحدة ، فاتسعت عيناها ، وهى تثب من مقعدها ، هاتفة :

ـ رباه ! لقد عاد للعمل .

هتف بها (رمزى) فى دهشة :

ـ كيف ؟!

اندفعت أصابعها بسرعة ولهفة إلى أزرار جهازها ، وهى تهتف :

ـ هذا لا يهم الآن ..

وتعلّقت عيناها بشاشة الجهاز ، مع إضافتها وانفعالها :

ـ المهم أن نعثر على أى أثر لـ ....

فجأة ، وقبل أن تتمّ عبارتهـا ، سـطعت شاشـة جهازها فى قوة ، ثم انبعث منـه أزيز ارتجاجى قوى ، قبل أن ترتسـم عليـه بقعة حمـراء كبيرة ، اتضحت ملامحها بسرعة ، و(رمزى) يهتف :

ـ ماذا حدث ؟!

حدّقت (سلوى) فى شاشـة الجهـاز لحظـة ، قبل أن تدير عينيها الذاهلتين إليه ، مجيبة بصوت منفعل مرتجف :

ـ لقد عادت .

سألها فى دهشة قلقة حذرة :

ـ ما هى ؟!

ارتجف صوتها أكثر ، وهى تشير إلـى الشاشـة ، قائلة :

ـ (شارك) .

واتسعت عينا (رمزى) عن آخرهما ..

فقد كـانت المفاجـأة مذهلـة ؛ لأن الحـدث لـم يكـن متوقَّعًا أو منتظرًا ..

على الإطلاق ..

ثم إن ما حدث كان يعنى الكثير ..

والكثير جدًّا ..

جدًّا ..

* * *

٦ - بلا أثر..

ارتفع حاجبا القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، فى دهشة بالغة ، وهو يتطلّع إلى شاشة هاتف الفيديو الخاص أمامه ، قائلاً لمدير أمن المبنى ، الذى ظهرت صورته عليها :

- من يطلب مقابلتى فورًا ؟!

أجابه مدير أمن المبنى :

- السيّدة (نشوى) ياسيّدى .. ابنة المقدّم (نور الدين) .. تقول :

إن الأمر عاجل وخطير للغاية .

انخفض حاجبا القائد الأعلى ، ثم انعقدا فى توتر ، وهو يغمغم :

- عاجل وخطير ؟! أكثر مما نواجهه بالفعل ؟!

لم يكن من المعتاد ، أو حتى من المتبع ، أن يلتقى

أفراد أى فريق علمى ، بالقائد الأعلى مباشرة ؛ إذ إن التسلسل القيادى الطبيعى يضع بينه وبينهم ثلاث قيادات فرعية على الأقل ، قبل بلوغ هذا المستوى ..

لذا فقد بدا من الواضح أن ما لدى (نشوى) ، ابنة (نور) و(سلوى) ، وخبيرة الكمبيوتر الأولى ، فى مركز الأبحاث العلمية ، التابع للمخابرات ، أمر بالغ الخطورة بالفعل ، وإلا ما لجأت إلى كسر قواعد القيادة ، على هذا النحو المباشر ..

ولم يستغرق تفكير القائد الأعلى طويلاً ، قبل أن يقول فى حزم :

- تأكّدوا من هويتها ، بكل الوسائل المتاحة ، وسألتقى بها فى مكتب الدكتور (جلال) ، رئيس مركز الأبحاث .

كان يضع فى اعتباره كل الاحتمالات ، حتى الضئيلة منها ؛ لتأمين الموقف تمامًا ، ولقد أيّده فى هذا الدكتور (جلال) نفسه ، وهو يقول فى حزم :

- الموقف كله يجبرنا على اتخاذ كل الحذر الممكن ؛

فحادث (ب . ن ـ ١٠٣) ، وتوقُّف الاتصالات على نحو غامض ، ما زال خبراؤنا يدرسونه ، فى محاولة لفهمه ، والاختفاء الغامض المثير للسيِّد (أمجد) ، المستشار الأمنى الخاص بالسيِّد الرئيس ، والذى عجزت كل إدارات الأمن عن تفسيره ، كلها عوامل تفرض علينا الشك فى كل شخص ، وكل أمر يخالف المعتاد .

علَّق القائد الأعلى ، فى اقتضاب حازم :

ـ بالتأكيد .

مع آخر كلمته ، برز مدير أمن المبنى عند باب حجرة مكتب الدكتور (جلال) ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ السيِّدة (نشوى نور الدين) .

نهض القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ دعها تتفضَّل .

تراجع مدير أمن المبنى ؛ ليفسح الطريق لـ (نشوى) ، التى عبرت إلى الحجرة فى حذر متوتر ، وهى تفرك كفيها ، قائلة :

ـ معذرة ياسادة .. أعلم أنه ليس من اللياقة أن ....

قاطعها القائد الأعلى بابتسامة هادئة ، وهو يدعوها للجلوس ، قائلاً :

ـ لا عليك يا بنيتى .. إنه حتمًا أمر مهم ، ذلك الذى دعاك إلى هذا .. تفضلى بالجلوس ، وسنستمع إليك جيِّدًا .

بدا عليها توتر ملحوظ ، وهى تتخذ مجلسها ، ولاذت بالصمت بضع لحظات ، وكأنها تبحث عن مدخل مناسب للحديث ، فقال الدكتور (جلال) :

ـ كلنا آذان مصغية يا بنيتى .

تردَّدت لحظة أخرى ، قبل أن تندفع قائلة :

ـ لقد انقطعت اتصالاتى بأمى فجأة .

تبادل الرجلان نظرة سريعة ، قبل أن يقول الدكتور (جلال) فى بطء :

- نحن نعلم هذا ، ولقد عادت الاتصالات منذ قليل ، و ....

قاطعته هى ، قائلة فى انفعال :

- المشكلة ليست فى انقطاع الاتصالات أو عودتها .. المشكلة تكمن فى أنه ، من الناحية العلمية ، لاتوجد أية وسيلة معروفة ، لقطع أسلوب الاتصالات ، الذى نستخدمه أنا وأمى .

قال الدكتور (جلال) ، محاولاً تهدئة انفعالها :

- خبراؤنا يدرسون هذا الأمر ، ويحاولون إيجاد تفسير علمى له .

تضاعف انفعالها ، وهى تقول :

- أنا وجدت التفسير .

حدّق الدكتور (جلال) فيها بدهشة ، فى حين اعتدل القائد الأعلى على مقعده بحركة حادة ، هاتفًا :

- وجدت التفسير ؟!

لوّحت بيدها ، قائلة :

- ربما أخطأت اللفظ ، ولكننى لم أقصد أننى أعرف التفسير بالضبط ، ولكننى أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا .

سألها الدكتور (جلال) ، بلهفة علمية شديدة :

- كيف ؟!

أجابت فى سرعة :

- هناك عالم فرنسى ، يجرى أبحاثًا وتجارب ، حول إيقاف واعتراض الأصوات والمعلومات المحمولة على أشعة الليزر ، ولقد عثرت على موقع أنشأه على شبكة الإنترنت الجديدة المتطوّرة ، يعرض فيه ما توصّل إليه من نتائج .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى شدة ، فى حين غمغم الدكتور (جلال) فى توتر :

- ولكن هذه مجرّد تجارب ، لايتوقّع لها أحد النجاح ، قبل ثلاثة أو أربعة أعوام على الأقل .

قالت فى حماسة :

- هذا صحيح .

تبادل الرجلان نظرة أخرى ، قبل أن يقول القائد الأعلى فى صرامة :

- سيِّدة (نشوى) .. لقد طلبت مقابلتى شخصيًا ، ولست أعتقد أن ..

قاطعته فى انفعال ، دون أن تنتبه إلى ما يجافيه هذا لأصول اللياقة وقواعد التسلسل القيادى :

- هذا دفعنى للبحث عن مواقع أخرى ، على شبكة الإنترنت الجديدة ، حول الأمور الغامضة ، فى هذا الحادث .

سألها الدكتور (جلال) فى سرعة ولهفة :

- وماذا وجدت ؟!

التفتت إليه ، وهى تشير بيدها ، قائلة فى انفعال :

- هناك تجارب ألمانية ، حول مراكب غوص جديدة ،

تتميَّز بصلابة شديدة ، وسرعة فائقة ، تحت سطح الماء باستخدام الوقود الأمينى الحديث ، والمشاركون فى هذه التجارب يتوقعون إنتاج مثل تلك المركبات ، مع بدايات العقد الثالث ، من القرن الحادى والعشرين .. وتلك المركبات المنتظرة يمكن أن تبلغ سرعتها ، وفقًا للتقديرات الحالية ، حوالى السبعين عقدة بحرية فى الساعة .. الأمريكيون أيضًا يواصلون تجاربهم ، حول وسيلة مبتكرة لنقل الأجسام والأشياء ، عبر الزمكان(*) ، دون التقيُّد بالحواجز أو المسافات ، بحيث يحدث النقل آنيًا ، فى نفس اللحظة ، بغضِّ النظر عن طبيعة المنقولات ، وتجاربهم الأوَّلية فى هذا الشأن تستخدم معجِّلاً خاصًّا ، يصدر ضوءًا ساطعًا ، كأضواء مصابيح التصوير ، عندما يبدأ عمله ..

تبادل الرجلان نظرة ثالثة متوترة ، قبل أن يقول القائد الأعلى فى حزم ، لم يخل مما يتفاعل فى أعماقه من انفعالات :

(*) الزمكان : مصطلح استخدمته نظرية النسبية لـ (ألبرت أينشتين) ، للتدليل على حدوث تغيير يتعلَّق بالزمان والمكان فى آن واحد .

- سيّدة (نشوى) .. كل ما تتحدثين عنه مجرّد تجارب ، لأشياء لم تر النور بعد .

أشارت بسبّابتها ، وهى تقول له فى حسم :

- هذا ما قصدته بالضبط .. كل ما نواجهه ، فى حادث الغوّاصة (ب . ن - ١٠٣) أمور متطوّرة ، من أشياء تجرى عليها التجارب بالفعل ، فى زمننا هذا .

همّ القائد الأعلى بقول شىء ما ، ولكن الدكتور (جلال) لم ينتبه إلى هذا ، مما جعله يقول فى عصبية :

- (نشوى) .. هل تدركين ما تعنيه استنتاجاتك هذه ؟!

أدارت إليه عينيها بحركة حادة ، مجيبة :

- بالتأكيد .. فما يعنيه هو أن خصومنا ليسوا من زمننا هذا .

والتقى حاجباها ، وهى تضيف ، بكل حزم الدنيا :

- بل من المستقبل .

اتسعت عيون الرجلين عن آخرهما ، وهى تكمل :

- مستقبلنا .

وكانت أكبر مفاجأة ، منذ بدأ هذا الأمر كله ..

أكبرها على الإطلاق ..

* * *

« لا يمكننا أن نقترب ، أكثر من هذا .. »

قال البحار عبارته ، فى مزيج من الصرامة والعصبية ، وهو يوقف زورقه ، الماسى الشكل ، فى عرض البحر ، على مسافة كيلومتر واحد من المدمرة (فجر) ، ثم أضاف فى عصبية خالصة :

- هيا .. حاولوا الانتهاء من عملكم بسرعة ، قبل أن تكشفنا دورية بحرية ، ويكون مصيرنا السجن .

انتقلت عصبيته وتوتره إلى (ياسر) ، وهو يغمغم :

- هذا ما أخشاه .. هذا ما أخشاه .

لوّحت (مشيرة) بيدها ، قائلة فى صرامة :

ـ دعك من هذا الخوف الأحمق ، ولخبرني : هل يمكنك التقاط الصور ، من هذه المسافة ؟!

حاول أن يخترق حجب الظلام ببصره ، قبل أن يضع منظار الرؤية الليلية على عينيه ، ويغمغم :

ـ لن تكون شديدة الوضوح ، ولكن ....

قاطعته في صرامة :

ـ ابدأ عملك إذن .

بدأ (ياسر) يعدّ أدواته ، في عصبية واضحة ، في حين قال البحار ، مستعيدًا ذلك المزيج ، من الصرامة والعصبية :

ـ أمامكما ربع الساعة فحسب ، ثم نعود أدراجنا .

أجابته (مشيرة) في قسوة :

ـ لن نتحرك سنتيمترًا واحدًا من هنا ، قبل أن نتمّ عملنا .

صاح بها في حدّة :

ـ سيّدتي .. إننا لسنا في ملاه للتسلية هنا .. إننا نتجسّس على ما يقوم به الأسطول ، في عرض البحر ، وعندما يتعلّق الأمر بعملية إنقاذ مهمة ، كما تؤكدين ، تجوب المنطقة دوريات عديدة ، ومن المحتمل أن تكشف إحداها أمرنا ، ويكون مصيرنا السجن .

غمغم (ياسر) في عصبية :

ـ أو الإعدام .

قالت (مشيرة) في شراسة :

ـ لا يوجد إعدام .

هتف بها البحار :

ـ من قال هذا ؟!

أجابته في حدة :

ـ القانون .

سألها في غضب :

- وماذا عن رد الفعل ؟!

ارتبكت ، وهى تغمغم :

- رد الفعل ؟! ماذا تعنى ؟!

أجاب فى غضب :

- أعنى ماذا لو رصدتنا دورية بحرية ، وتصورَت أننا جواسيس ، نظرًا لموقعنا ، وما تحملانه من آلات ، فبادرت بإطلاق النار علينا مباشرة ؟

انتفض جسد (ياسر) فى ارتياع ، وهو يهتف مذعورًا :

- أمن الممكن أن يحدث هذا ؟!

هتف به :

- ولِمَ لا ؟!

تخلَّى (ياسر) عن آلاته وأدواته ، ونهض يقول فى عصبية :

- إننا لم نتحدث عن هذا .

لكزته (مشيرة) فى كتفه ، قائلة :

- واصل عملك ، وإلا قمت أنا به ، و ...

قبل أن تتمّ عبارتها ، انبعث أزيز خافت من أجهزة الزورق ، مع ضوء متقطّع ، جعل البحار يتمتم فى عصبية بالغة :

- يا إلهى ! يا إلهى !

سألته (مشيرة) فى خوف :

- ماذا حدث ؟!

استدار إلى آلات الزورق ، وهو يقول فى توتر :

- شىء ما يقترب منا .

سألته فى ذعر :

- أى شىء ؟!

انهار (ياسر) تمامًا ، وجلس فى قاع الزروق ، وأخفى وجهه بين كفيه ، وهو يردّد :

- كنتِ أعلم أن هذا سيحدث .. كنت أعلم .

استدار إلى آلات الزورق ، وهو يقول فى توتر :
ـ شىء ما يقترب منا ؟!

حدَّقت فيه (مشيرة) فى ذعر ، قبل أن تلتفت إلى البحار ، ويختنق صوتها ، وهى تكرِّر :

ـ أى شىء هذا ؟!

اتسعت عيناه ، فى خوف مبهم ، وهو يراقب شاشة جهاز الرصد فى زورقه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. إنه شىء يقترب فى بطء .

ثم أدار عينيه إليها ، مضيفًا :

ـ تحت سطح البحر .

انتقل إليها هلعه ، وهى تهتف :

ـ غوَّاصة ؟!

هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لاتبدو كذلك .. إنها مركبة صغيرة الحجم ، و ....

بتر عبارته بغتة ، وانتفض جسده كله مرة أخرى ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى الشاشة ، فهتفت به :

ـ ماذا هناك باللّه عليك ؟! ماذا هناك ؟!

ارتجف صوته ، على نحو يوحى بأنه لم يواجه موقفًا كهذا من قبل قط ، وهو يهتف :

ـ لقد .. لقد توقّفت تحتنا .. تحتنا مباشرة .

ترك (ياسر) جسده كله يسقط داخل الزورق ، وهو يغمغم فى انهيار :

ـ إنها النهاية .. إنها النهاية .

صرخت فيه (مشيرة) :

ـ اصمت باللّه عليك .. اصمت .

ولكنه ظلّ يردّد كلماته بلا انقطاع ، فى حين ارتجفت كل ذرة فى كيان البحار ، وهو يقول :

ـ لم يكن ينبغى أن أفعل هذا .

حاول فى استماتة ، إعادة تشغيل الزورق ، ولكن شيئًا ما كان يوقف محركاته كلها ، فصاحت به (مشيرة) ، وقد انهارت أعصابها أيضًا ، مع وطأة الموقف :

ـ أسرع باللّه عليك .. أسرع ..

وفجأة ، ومع آخر حروف كلماتها ، سطع ضوء مبهر من أسفل الزورق الماسى ، فانطلقت من حلقها صرخة رعب هائلة ، وشهق البحار ، وانهار (ياسر) حتى فقد الوعى ..

ثم خبا الضوء فجأة ، وانسحب من المساحة الواسعة ، التى انتشر فيها ، وعاد الظلام يغلّف كل شىء ..

كل شىء بلا استثناء ..

وبقى الزورق ، الماسى التصميم ، يتمايل فى رفق ، على سطح البحر .

ولكن كل من عليه اختفوا تمامًا ، دون أن يتركوا خلفهم أثرًا ..

أدنى أثر ..

* * *

« مستحيل !! »

غمغم قبطان المدمرة (فجر) بالكلمة فى ذهول ، وهو يحدّق فى المركبة (شارك) ، التى تم رفعها إلى قلب المدمرة ، والتى بدت سليمة تمامًا ..

وخالية تمامًا ..

كل شىء فيها كان سليمًا ، لم تمسسه يد ، حتى بمحاولة للفحص أو الاختبار ..

ولكن لم يكن هناك أثر لطاقم الضفادع البشرية ، الذى كان داخلها ، عندما اختفت ..

أدنى أثر ..

وبكل توتر الدنيا ، قالت (سلوى) :

ـ الكمبيوتر يؤكّد أنها قد ظهرت فى نفس النقطة ، التى اختفت عندها ، وكأنها لم تتحرّك من مكانها قيد أنملة .

قال القبطان فى صرامة متوتّرة :

ـ أين طاقمها إذن ؟!

قال مساعده ، وهو يميل برأسه ؛ ليتطلّع داخل المركبة فى حذر :

ـ ربما ابتلعهم وحش غامض ، أو ...

قاطعه القبطان فى غضب :

ـ كف عن هذه السخافات .

اعتدل المساعد ، وبدت لهجته عصبية ، وهو يقول :

- ولماذا سخافات ؟! منذ بدأت هذه العملية ، وكل شىء يحدث على نحو غير طبيعى ، فلماذا لانفترض أيضًا وجود وحوش ما ، فى أعماق البحر ؟!

أجابته (سلوى) فى سرعة :

- لأن الأجهزة لم تُسجّل شيئًا كهذا .

قال بنفس السرعة :

- ولم تُسجّل وجود تلك الأشباح فى الأعماق أيضًا .

التقى حاجباها فى توتر ، فى حين شدّ القبطان قامته ، وأشاح بوجهه ، وكأنما ينأى بنفسه عن الدخول فى هذه المناظرة السخيفة ، ومن وجهة نظره ، وقال فى صرامة آمرة :

- الآن وقد عادت الاتصالات ، أبلغوا (القاهرة) بانتهاء المهمة ، وانتشال (ب . ن – ١٠٣) ، واستعدادنا للعودة ، فور تحديد النتائج .

انطلق ضابط الاتصالات لتنفيذ الأمر ، فى حين قال (رمزى) فى توتر :

- وماذا عن (نور) و (أكرم) ؟!

استدار إليه القبطان فى بطء ، وبملامح توحى بأنه يبذل جهدًا حقيقيًا ، للسيطرة على مشاعره ، وهو يقول :

- ماذا عنهما ؟!

أجابته (سلوى) فى انفعال :

- عودة (شارك) تمنحنا الأمل فى عودتهما أيضًا .

قال القبطان فى صرامة :

- (شارك) عادت بدون طاقمها .

قالت (سلوى) فى إصرار :

ـ لا أحد يدرى لماذا حدث هذا ، ولا ما الذى يمكن أن يحدث فيما بعد .

أشاح القبطان بوجهه مرة أخرى ، وقال :

ـ نحن هنا فى مهمة محدودة ؛ لإنقاذ (ب . ن ـ ١٠٣) ، ولقد نفذنا المهمة .

هتف (رمزى) فى غضب :

ـ بمبادرة (نور) و(أكرم) .

أجابه القبطان فى صرامة :

ـ بتضحيات عشرات الرجال ، أيها الخبير النفسى .

قال (رمزى) فى حدة :

ـ فليكن .. ألا ينبغى أن تبذل بعض الجهد ، لاستعادة هؤلاء الرجال ، الذين تتحدّث عنهم ؟!

قال القبطان ، فى صرامة أكثر :

ـ مهمتنا الرسمية انتهت ياسيّد (رمزى) ، والقواعد العسكرية تحتم العودة إلى القاعدة ، ما لم نتلق أوامر جديدة .

التقى حاجبا (سلوى) فى شدة ، وتراجعت بضع خطوات ، وهى تقول فى صرامة شديدة :

ـ لن أتحرّك خطوة واحدة من هنا ، قبل استعادة (نور) و(أكرم) .

تبادل معها القبطان نظرة عصبية ، متحدية ، غاضبة ، قبل أن يقول ، فى صرامة بلا حدود :

ـ فليكن .. سأضعك مع أجهزتك فى زورق من زوارق النجاة ، وافعلى ما شئت .. وحدك .

هتف (رمزى) :

ـ هذا تصرُّف غير أخلاقى .

صاح به القبطان فى غضب :

- ما أفعله تصرُّف قانونى وعسكرى مائة فى المائة يارجل ، ولقد تحدثت إلى القيادة بنفسى ، وهم يؤيدون فكرة العودة إلى القاعدة ؛ خشية وقوع خسائر جديدة ، فى الأرواح والمعدات ، قبل أن ينجلى اللغز ، ولن أجازف بحياة عشرات الرجال ، من أجل رجلين ، حتى ولو كانا (نور) و(أكرم) هذين .. هل فهمتما ؟!

احتقن وجه (سلوى) بشدة ، وشعرت بمزيج من الغضب والعجز والمرارة يتصاعد إلى حلقها ، ويملأ نفسها بغثيان عجيب ، تكاد معه تفرغ ما يجوفها ..

ولكن فجأة ، اندفع أحد الضباط إلى ميناء القاع ، وهو يهتف :

سيِّدى القبطان .

التفت إليه الكل فى توتر قلق ، وسأله القبطان :

ماذا هناك يا رجل ؟!

ازدرد الضابط لعابه ، فى محاولة لترطيب حلقه الجاف ، والسيطرة على مشاعره وانفعالاته ، قبل أن يقول :

- لقد أوصلنا الأكسجين للغوّاصة (ب . ن - ١٠٣) ، ثم أدخل الخبراء مصدرًا ضوئيًا ، عبر أنبوب من الألياف الضوئية ، مع منظار خاص ، للبحث عن الطاقم المفقود ، حيًا أو ميتًا .

حمل صوت القبطان قلقه العارم ، المختبئ فى أعماقه ، وهو يقول :

- لاتقل لى : إنكم قد عثرتم على جثثهم .

هزَّ الضابط رأسه نفيًا ، وأجاب بكل انفعاله :

- كلاَّ يا سيِّدى .. لم نعثر على جثثهم .

وازدرد لعابه مرة أخرى ، قبل أن يضيف بانفعال أكثر :

ـ لم نعثر على أى شىء على الإطلاق .

حدَّق القبطان فى وجهه ، بكل دهشة وقلق الدنيا ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

هزَّ الضابط رأسه فى قوة ، وكأنما يعجز عقله نفسه عن تصديق ما سينطق به لسانه ، قبل أن يقول :

ـ كل مداخل الغوَّاصة كانت مغلقة من الداخل بإحكام ، وعلى الرغم من هذا فقد كانت خالية .

ردَّد القبطان فى ذهول :

ـ خالية ؟!

هزَّ الضابط رأسه مرة أخرى ، قبل أن ينخفض صوته إلى حد عجيب ، وهو يقول :

ـ نعم ياسيِّدى .. (ب . ن ـ ١٠٣) كانت خالية ، ولم يكن بداخلها أثر لفرد واحد من طاقمها .. أدنى أثر .

اتسعت عيون الكل ، فى دهشة وارتياع ، فيما عدا (سلوى) ، التى قالت فى عصبية :

ـ كنت أتوقَّع هذا .

لم تكد تنطقها ، حتى ارتفع من ساعة معصمها أزيز قوى ، وراحت تتألَّق على نحو متقطِّع ، فاستدار إليها القبطان فى عصبية ، هاتفًا :

ـ ما هذا أيضًا ؟!

اندفعت نحو الباب ، هاتفة :

ـ الجهاز فى ساعتى يتصل لاسلكيًّا بجهاز رصد الأعماق ، الخاص بى ، وهذه الإشارة تعنى أن الأخير قد رصد شيئًا جديدًا .

ردَّد القبطان فى توتر بالغ :

ـ رصد شيئًا جديدًا ؟!

وبحركة غريزية ، انطلق يعدو خلفها ، ولحق بهما مساعده ، و(رمزى) ، وضابط الاتصال أيضًا ..

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الكل فى تلك القاعة الصغيرة ، المخصصة لفريق المخابرات العلمية ..

وفى سرعة ، جلست (سلوى) أمام جهازها ، وضغطت أزراره ، و ....

وتألَّقت الشاشة ..

ولثوان ، حدَّق الجميع فى الشاشة ، بعيون اتسعت حتى آخرها ..

وران على القاعة صمت عجيب ..

صمت ثقيل ..

مهيب ..

رهيب ..

صمت قطعه قبطان المدمرة (فجر) ، وهو يغمغم :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

حملت غمغمته كل ما استعر فى أعماقه ، من دهشة ، وحيرة ، وقلق ، وخوف ، ورهبة ..

فما يرصده جهاز (سلوى) ، وما يدور فى أعماق البحر ، كان أمرًا عجيبًا رهيبًا ..

للغاية .

* * *

٧ـ الخــوف ..

التقى حاجبا رئيس الجمهورية ، فى توتر لم يشعر به فى حياته أبدًا ، وهو يطالع التقارير الخاصة باختفاء مستشاره الأمنى الخاص (أمجد صبحى) ، قبل أن يسأل مدير المخابرات فى غضب :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟! كيف لم يعثر الخبراء على أدنى أثر لـ (أمجد) .. إنه لم يتلاش بالتأكيد .

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ الواقع أن حادثة اختفاء السيِّد (أمجد) محاطة بقدر هائل من الغموض خاصة وأنها قد تمت خلال دقائق معدودة ، وعلى نحو لم يحدث من قبل قط .

اعتدل الرئيس ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كان ينبغى أن يحاط دومًا بحراسة مكثفة .

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلاً :

ـ سيادتك تعلم أن السيِّد (أمجد) ظلّ يرفض هذا الأمر بإصرار شديد ، وأن كل محاولاتنا لإقناعه بأمر طاقم الحراسة هذا ، قد قوبلت منه بالمزيد من العناد والصرامة .

قال الرئيس فى حدة :

ـ كان ينبغى إجباره على هذا .

رفع مدير المخابرات حاجبيه وخفضهما ، وهو يقول :

ـ من المستحيل إجبار السيِّد (أمجد) ، على شىء يرفضه .

زفر الرئيس ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا .

ثم استعاد صرامته وعصبيته ، وهو يضيف :

ـ ولكن من المستحيل أن نقف عاجزين ، أمام اختفاء شخص مثله .

هَز مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد ، ولكننا نبحث عن طرف خيط ، يمكن أن تنطلق من عنده ؛ فمنزل السيِّد (أمجد) من طابق واحد ، محاط بحديقة كبيرة ، وله مدخل أمامى ، وآخر خلفى .. والخبراء وجدوا المدخل الخلفى مغلقًا ، ولم يتمّ فتحه منذ فترة طويلة ، تقترب من ثلاثة أشهر ، وهم واثقون تمامًا من رأيهم هذا ، بعد كل ما أجروه من فحوص ، ثم إن النوافذ كلها مغلقة من الداخل أيضًا ، ومتصلة بأجهزة إنذار إليكترونية ، لم تسجّل أية محاولة اقتحام خارجية ، أما الباب الأمامى ، فلم يعبره أى مخلوق ، منذ غادره السيِّد (أمجد) فى الصباح ، وحتى عاد إليه ، قبيل اختفائه بدقائق .

بدت الحيرة على وجه الرئيس ، وهو يتساءل :

ـ ماذا حدث إذن ؟!

ثم رفع رأسه إلى أعلى ، وزفر فى حرارة ، قبل أن يتابع فى توتر :

ـ وأين ذهب (أمجد) ؟!

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ ولماذا ؟!

مطَّ مدير المخابرات شفتيه ، وقال :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .

اعتدل الرئيس فى مجلسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا لا يكفى .

بدت الدهشة على وجه مدير المخابرات ، وهو يكرِّر :

ـ لا يكفى ؟!

التقط الرئيس أحد هواتفه الساخنة الخاصة(*) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ نعم .. بحثكم وحده لايكفى .. إننا أمام لغز غامض ، يتعلّق بأمر يتجاوز حدود عقولنا ، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، يبدأ دور المخابرات العلمية .

(★) الهاتف الساخن : خط يصل مباشرة بين هاتفين ، بحيث يتم الاتصال الهاتفى ، فور رفع سمّاعة أحدهما ، ولقد ابتكر المصطلح عالم أمريكى ، للتدليل على سرعة الاتصال وأهميته ، فى هذه الحالة .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ كل ما نحتاج إليه هو الوقت فحسب .

قال الرئيس فى صرامة :

ـ ولسنا نمتلكه للأسف .

بدا الضيق على وجه مدير المخابرات ، والرئيس يخاطب القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، عبر الهاتف الساخن ، قائلاً :

ـ أريدك فى مكتبى فورًا ، أيها القائد الأعلى .

أجابه القائد الأعلى على الفور :

ـ فورًا يا سيادة الرئيس .

لم يكد الرئيس ينهى الاتصال ، حتى ارتفع أزيز الجهاز الخاص أمامه ، والذى ينقل إليه تقارير الأحداث أولاً فأول ، فالتفت إليه الرئيس ، والتقط التقرير الوارد منه ، والتقى حاجباه ، وهو يلقى نظرة عليه ..

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ، وأمسك مسند مقعده بحركة غريزية ، تشفّ عن توتر عنيف ، على نحو أدرك معه مدير المخابرات الواقف أمامه ، أن ذلك التقرير يحوى أخبارًا خطيرة ورهيبة جدًا ..

* * *

« نظريتك عجيبة بحق يا سيِّدة (نشوى) .. »

نطق رئيس فريق العلماء العبارة ، فى حجرة الاجتماعات الرئيسية ، داخل مبنى إدارة الأبحاث العلمية ، قبل أن يتحرّك فى المكان فى توتر ، متابعًا :

ـ ولكن من العسير اعتمادها ، أو الموافقة عليها ، دون أدلة قوية تؤيِّدها .

هزّت (نشوى) رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ لست هنا للبحث عن اعتماد قانونى ، أو تأييد علمى لنظرية جديدة ، أحلم بأن تضعنى على القمة .. إننى

أسعى فقط لمواجهة ذلك الخطر ، الذى يهدِّد أمن وسلامة الجميع ، ولإنقاذ كل من يمكن إنقاذه ، من أية مخاطر محتملة .

تبادل فريق العلماء نظرة صامتة ، قبل أن يقول رئيسهم فى حذر :

ـ أعطينا سببًا واحدًا إذن ، يدفع أهل المستقبل إلى الهجوم على زمننا هذا .

أجابت فى سرعة ، وكأنها كانت تنتظر السؤال وتتوقَّعه :

ـ السيطرة على مستقبلهم .

حدَّق العلماء فى وجهها لحظة ، قبل أن يتراجعوا فى مقاعدهم ، وتتألَّق فى عيونهم نظرة ساخرة ، انتقلت إلى ابتسامة رئيس الفريق ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره ، ويسألها :

ـ وما الذى يمكن أن يفعلوه فى زمننا ، للسيطرة على مستقبلهم ؟!

أجابته فى حزم عنيد :

ـ من المؤكَّد أننا لن نعلم هذا ، إلا لو كنا من زمنهم .

اكتسب صوته سخرية أكبر ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟!

امتلأت نفسها بالغضب ، الذى أطل فى وضوح على وجهها ، وإن سيطرت على أعصابها تمامًا ، وهى تقول :

ـ قل لى يا سيِّدى : هل لى أن أسألك سؤالاً واحدًا ؟!

لم تخل لهجته من السخرية نفسها ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

نهضت بحركة حادة ، ورفعت سبَّابتها ، قائلة :

ـ لو افترضنا أننا قد امتلكنا آلة زمن الآن ، واستخدمناها للعودة إلى زمن ماض .. قبل كارثة (نيويورك) مثلاً ، وسعينا لقتل ذلك الصهيونى ، الذى خطَّط للعملية ، وتسبَّب فى كل ما أريق بسببها من دماء ، وكل

ما أزهق من أرواح .. هل تعتقد أن أحدًا ، فى الزمن الذى ذهبنا إليه ، يمكنه أن يعرف ، أو حتى يستنتج السبب ، الذى يدفعنا للسعى خلف ذلك الرجل ؟!

انعقد حاجبا رئيس فريق العلماء ، فى حين استعارت هى سخريته ، وهى تتابع :

ـ تُرى كيف يكون شعور أى شخص من ذلك الزمن ، لو أصرّ أحدهم على أن يعلم منه أولاً ما نسعى إليه ، قبل أن يصدّق نظريته ، فى أننا قد أتينا من المستقبل ؟!

ابتسم العلماء ، وكأنما راقت لهم دعابتها ، فانعقد حاجبا رئيسهم ، وهو يقول فى عصبية غاضبة :

ـ مجرّد سفسطة ، بلا أى دليل علمى .

سألته فى حدة :

ـ وما الدليل الذى تنشده ؟! جريدة من المستقبل ، تحمل خبرًا مازلنا نجهله ، أم نبوءة عرّاف من الماضى ، حول حادثة خطيرة ، مازلنا لا ندرى كيف ستحدث ؟

ومالت تستند بكفيها إلى مائدة الاجتماعات ، وتطلّعت إلى وجوه العلماء الجالسين أمامها ، وهى تتابع فى صرامة :

ـ أنا عضو فى أهم فريق ، من فرق المخابرات العلمية أيها السادة .. فريق المقدّم (نور الدين) .. الذى تعرفونه جميعًا ، وأهم ما تعلّمته ، فى هذا الفريق ، هو قاعدة يؤمن بها والدى تمامًا ، وتقول : « لو استبعدنا المستحيلات ، فى كل لغز نواجهه ، فما يتبقى أمامنا هو الحقائق ، مهما بلغت غرابتها .. » .. وبهذه القاعدة ، توصّل أبى إلى حل عشرات الغوامض والألغاز ، التى جعلته أشهر ضابط مخابرات علمية ، فى العالم أجمع .. وفى هذا اللغز ، قمت بتطبيق مبدأ والدى هذا ، والذى استقاه بدوره من شخصية روائية شهيرة(*) ، ووجدت أمامى مجموعة من الحقائق ، التى تمنحنا تفسيرًا ، قد لايريح معظمكم ، ولكنه يجعل الوقائع كلها مقبولة ، مهما بلغت غرابتها .

(★) (شيرلوك هولمز) ، لمبتكرها سير (آرثر كونان دويل) ..

صمتت لحظة ، التقطت خلالها أنفاسها ، قبل أن تعتدل واقفة ، وتضيف بكل حزم وصرامة :

ـ وأنا أؤمن بما توصلت إليه تمامًا ، سواء أقنعكم أم لم يقنعكم .

قالتها ، واستدارت لتغادر القاعة فى غضب ، لولا أن استوقفها صوت الدكتور (جلال) الحازم ، وهو يقول :

ـ لقد أقنعنى أنا .

استدار العلماء كلهم إليه ، فى دهشة مذعورة ، فنهض من مقعده ، مواصلاً بنفس الحزم :

ـ ربما يبدو ما توصلت إليه مخيفًا ، وربما يخشى معظمنا تصديقه ، أو الاعتراف بصحته ؛ لأنه يضعنا أمام موقف رهيب ، لا قبل لنا به ؛ إذ إن خصومًا من مستقبلنا سيمتلكون سلاحين لايمكننا التصدّى لهما ، مهما بلغت قوتنا .

ثم أشار بسبّابته وإبهامه ، مضيفًا :

ـ تكنولوجيا تفوقنا بعدة مراحل .. ومعرفة تامة بكل ما فعلناه ، وما سنفعله لمواجهتهم ، و ...

رفعت (نشوى) يدها ، قائلة فى حزم :

ـ خطأ .

استدار إليها بدهشة ، فخفضت يدها ، واكتسى وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتابع :

ـ معذرة يا دكتور (جلال) .. أعلم أننى قد خالفت كل قواعد الذوق واللياقة بمقاطعتى إياك ، ولكن ما أردت قوله هو أن الأمر يخضع الآن لقواعد أخرى ، لاتتفق والمنطق الطبيعى للأمور .

سألها فى اهتمام :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابت فى سرعة :

ـ أعنى أنه لو كان خصومنا قد أتوا من مستقبلنا بالفعل ؛ لمنع شىء ما ، يمكن أن يؤثر فى حاضرهم ،

أو ربما فى مستقبلهم ، فعودتهم إلى زمننا ، وتدخُّلهم فى الأمور ، سيغيّر حتمًا مجرى الأحداث كلها ، أى أن ما سنفعله للتصدّى لهم ، لم يكن مسجّلاً حتمًا فى زمنهم ، وإلا لكان هذا يعنى أن عودتهم بلا طائل أو معنى.

بدت الحيرة على بعض العلماء ، وهم يحاولون استيعاب ما تعنيه ، فى حين تألّقت عينا الدكتور (جلال) ، وهو يهتف :

ـ رباه ! أنت عبقرية يابنيتى .. (نور) أنجب بحق .

اندفع أحد العلماء ، يقول فى عصبية :

ـ حتى لو كانت كذلك ، ومهما بلغت صحة نظريتها ، فهى لم تضف جديدًا إلى الأمور .. مازلنا عاجزين عن التصدّى لما يفعله بنا هؤلاء المستقبليون .. لو صحّ وجودهم .

أجابته (نشوى) فى حزم :

ـ مهمتنا أن نبحث عن وسيلة لذلك إذن .

ثم شدّت قامتها ، مستطردة :

ـ وبأى ثمن .

ومرة أخرى ، تألّقت عينا الدكتور (جلال) ، وهو يتطلّع إليها فى إعجاب بلغ حد الانبهار ، فقد بدت ، فى تلك اللحظة ، أكثر شبها بأبيها المقدّم (نور) ، الذى اختفى مع زميله (أكرم) هناك ..

فى الأعماق ..

* * *

بقعة من ضوء مبهر ، ظهرت فى أعماق البحر ، أسفل المدمرة (فجر) تمامًا ..

بقعة راحت تتسع ..

وتتسع ..

وتتسع ..

ومع اتساعها ، راح ضوؤها يزداد سطوعًا ، وينتشر

فى أعماق البحر ، فى نفس الموقع الذى كانت تحتله الغوّاصة النووية (ب . ن - ١٠٣) ..

وينتشر ..

وينتشر ..

وفى حيرة عصبية ، تساءل القبطان :

- ما مصدر هذا الضوء بالضبط ؟!

هزّت (سلوى) رأسها ، قائلة :

- لست أدرى .. الجهاز لا يسجّل وجود أى جسم مادى فى الأعماق ، ولكنه يرصد الضوء شديد السطوع ، والذى تتزايد شدته فى كل لحظة .

عاد مساعد القبطان من السطح ، وهو يقول فى توتّر :

- الضوء ملحوظ عند سطح البحر ، ويحيط بالمدمرة وما حولها من زوارق ويتسع بسرعة تثير خوف وقلق الجميع .

غمغم القبطان :

- يا إلهى ! وفقًا لجهازك ، ينبع ذلك الضوء المبهر ، من عمق تسعمائة متر ، تحت سطح البحر ، وعبوره هذه المسافة ، حتى يبدو واضحًا للأعين هنا ، يعنى أنه أشبه بشمس صغيرة فى الأعماق .

قالت ، وهى تطالع شاشتها ، فى قلق عارم :

- بالضبط .

تساءل (رمزى) فى عصبية :

- إلى متى سيستمرّ فى الشدة والاتساع ؟!

قال القبطان :

- بل قل : ما الذى يهدف إليه بالضبط ؟!

جرت أصابع (سلوى) على أزرار جهازها ، قبل أن تقول :

- إنه يتحرّك .

جرت أصابع (سلوى) على أزرار جهازها ، قبل أن تقول :
- إنه يتحرك !!

انعقد حاجبا القبطان فى شدة ، وهو يقول :

ـ يتحرك ؟! لماذا ؟!

أما (رمزى) ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وتراجع خطوة إلى الخلف ، متمتمًا :

ـ رباه ! هل .. هل ..

سأله القبطان فى عصبية :

ـ لماذا لا تكمل ما تريد قوله ؟!

استدار إليه (رمزى) ، قائلاً فى ذعر :

ـ ماذا لو أنه .. أعنى لو أن هدفه هو .. يا إلهى ! يا إلهى !

صاح به القبطان فى حدة :

ـ ماذا تريد أن تقول بالله عليك ؟!

قبل أن ينبس (رمزى) ببنت شفة ، هتفت (سلوى) :

ـ رباه ! إنه ....

لم تستطع إكمال هتافها ، فالتفت الكل إلى شاشة جهازها ، واتسعت عيونهم عن آخرها ..

ففى تسارع مطرد ، كان ذلك الضوء المبهر يدور حول نفسه ..

ويدور ..

ويدور ..

ومع دورانه ، تحوّل إلى دوّامة من الضوء ، واصلت اتساعها فى سرعة ، لينتقل دورانها عبر مياه البحر إلى أعلى ..

وأعلى ..

وأعلى ..

ومع اقترابه من السطح ، بدأ تأثيره يمتدّ إلى الزوارق المحيطة بالمدمرة (فجر) ، كما لو أنها قد سقطت فجأة فى دوامة بحرية رهيبة ..

وكرد فعل طبيعى ، سادت موجة من الاضطراب ، بين

أطقم زوارق الطوربيد ، وبحارة المدمرة (فجر) ، وانطلق الكل يقاتل فى استماتة ؛ للسيطرة على توازن المركبات ، فى محاولة للخروج من مجال الدوّامة ، التى راحت تشتدّ أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومع تزايد شدتها ، سطع الضوء المحيط بمجموعة الإنقاذ أكثر ، واتسعت مساحته ، وهتف قبطان (فجر) :

ـ أديروا المحركات .. بأقصى سرعة ..

كانت زوارق الطوربيد قد أدارت محركاتها بالفعل ، فانطلقت تزأر بشدة ، وشدة الدوّامة تتسع وتتعاظم ، والضوء المبهر يشتدّ ..

ويشتدّ ..

ويشتدّ ..

وكانت معركة رهيبة عنيفة ..

معركة بين أبطال الأسطول المصرى ، وخطر غامض رهيب ..

وقاتل ..

وفى موقعها ، هتفت (سلوى) :

ـ رباه ! الجهاز يُسجِّل قوة جذب رهيبة ، عند مركز ذلك الضوء المبهر .

كانت سرعة دوران الضوء قد بلغت حدًّا رهيبًا ، وراح يشفط كميات هائلة من مياه البحر ، على شكل دوامة هائلة ، جعلت (سلوى) تهتف :

ـ يا إلهى ! لقد تحوَّل ذلك الضوء المبهر إلى ما يشبه تلك الثقوب السوداء فى السماء .. إنه يجذب إليه كل ما حوله بقوة رهيبة .

تساءل مساعد القبطان ، فى توتر بالغ :

ـ وأين يذهب ما يبتلعه ؟!

هزَّت رأسها فى قوة ، مجيبة :

ـ لست أدرى .. إنه يلتهم كل ما حوله بلا هوادة .. الصخور ، والأسماك ، وأطنان من المياه .. كل شىء .

اندفع أحد الضباط إلى القاعة ، فى تلك اللحظة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ سيِّدى القبطان .. زوارق الطوربيد عاجزة عن الخروج من تلك الدوَّامة الرهيبة .. محركاتها تعمل بأقصى قوتها ، ولكن قوة الجذب تفوقها عشرات المرات .

ثم ازدرد لعابه ، ولوَّح بيده ، مستطردًا :

ـ لا بد أن نبتعد بالمدمرة فورًا يا سيِّدى ؛ وإلا سقطنا أسرى لها أيضًا .

غمغم مساعد القبطان فى ارتياع :

- هـذا يعنى أن نتخلّى عـن الغوّاصـة ، وزوارق الطوربيد .

التقى حاجبا القبطان بشدة ، وهو يتطلّع إلى شاشة جهاز رصد (سلوى) الخاص ، وعقله يصارع إعصارًا من الأفكار ، فى محاولة لاتخاذ قرار حازم حاسم ، بشأن ما يحدث ..

قرار يعلم مسبقًا ، أنه سيحتم عليه التضحية بالرجال ..

عشرات الرجال ..

* * *

اتسعت عينا الكولونيل (بيرجانوف) ، الملحق العسكرى الروسى ، وهو يحدّق فى وجه الرئيس ، مغمغمًا :

- دوّامة ضوئية ؟! هذا لم يحدث فى حالتنا قط .

بدا الرئيس صارمًا متوترًا ، وهو يسأله :

- أأنت واثق يا جنرال ؟!

هزّ الروسى رأسه فى قوة ، قائلاً :

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. لايمكن للمرء أن ينسى أو يتجاهل أمرًا كهذا .

تدخّل القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، قائلاً :

- تلك الدوّامة الضوئية توشك على ابتلاع زوارق الطوربيد ، التى تصحب المدمرة (فجر) ، بعد أن نجحت فى انتشال (ب . ن - ١٠٣) بالفعل .

استدار إليه الكولونيل (بيرجانوف) ، وسأل فى توتر بالغ :

- كانت خالية .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا الرئيس ، فى حين شدّ القائد الأعلى للمخابرات العلمية قامته ، وقال :

- أتقصد (ب . ن - ١٠٣) ؟!

أجابه فى لهفة :

ـ بالتأكيد .. لقد وجدتموها خالية ، ولم يكن هناك أى أثر لطاقمها .. أليس كذلك ؟! هذا ما حدث معنا ، فى حادثة غواصتنا (كورسيك) .

ثم لهث على نحو عجيب ، وكأنما يغالب انفعالاً كامناً فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ إنهم يتطورون .

سأله الرئيس فى صرامة :

ـ من تقصد بقولك هذا يا كولونيل ؟!

أجابه الروسى فى توتر بالغ :

ـ الأشباح .. الأشباح الذين عجزنا عن مواجهتهم ، والذين ستعجزون أنتم أيضاً عن مواجهتهم .

قال الرئيس فى حدة :

ـ لاتتحدث عما لا يخصك يا كولونيل .

وأضاف القائد الأعلى للمخابرات العلمية فى حزم :

ـ ظروفنا تختلف عنكم يا كولونيل (بيرجانوف) ، فتلك الأشباح ، كما تدعوها ، تهاجمنا فى عصر ، تطوَّرت فيه تكنولوجيتنا ووسائلنا كثيراً .

قال الكولونيل فى إصرار :

ـ هم أيضاً تطوَّروا .. ففى حادثتنا لم نواجه تلك الدوامة الضوئية الرهيبة ، التى قالت رسالة مدمرتكم عنها : إنها تتسع وتزداد شدة فى كل لحظة ، حتى لتكاد تبتلع كل شىء .. لقد تطوَّروا على نحو أكثر قوة ، مما يعنى أن المواجهة لن تكون لصالحكم قط ، مهما فعلتم .

ثم التقط نفساً عميقاً ، واعتدل فى وقفته ، مضيفاً :

ـ لو أردتما نصيحتى أيها السادة ، فالأفضل أن تتخذوا القرار ، الذى لم تتخذه قيادتنا فى حينه ،

والذى أثبتت كل الدراسات فيما بعد ، أنه كان أفضل قرار ينبغى اتخاذه ، فى هذا الشأن .

تبادل الرئيس نظرة صامتة متوترة ، مع القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، قبل أن يسأل الروسى فى حذر :

ـ أى قرار هذا ؟!

التقط الروسى نفسًا عميقًا آخر ، قبل أن يقول بكل الحزم والصرامة :

ـ استخدموا قنبلة نووية محدودة ، وانسفوا المنطقة التى غرقت فيها غواصتكم ، بكل ما عليها ، ومن عليها .. وفورًا .

وازداد انعقاد حاجبى الرئيس فى شدة ، وقد بدا له أن حديث الروسى مخيف رهيب ، ولكن يبدو أنه صادق ومحق تمامًا ..

فالوسيلة الوحيدة ، لإنقاذ (مصر) والعالم ، من ذلك الخطر الغامض الرهيب ، قد تحتم سحق المنطقة كلها ..

وبلا رحمة .

* * *

٨ ـ المفاجآت ..

شدّ الرائد (هيثم)، قائد فريق المخابرات العلمية الجديد، الذى أسند إليه القائد الأعلى مهمة التحقيق الفورى، فى حادثة الاختفاء الغامض للسيِّد (أمجد صبحى) ، قامته ، وأدار عينيه في منزل هذا الأخير ، قبل أن يشير إلى فريقه ، قائلاً :

ـ سنبدأ عملنا على الفور .. سنفحص المكان بكل الوسائل المتطوِّرة ، التى نحملها معنا .. أريد معرفة ما حدث هنا بأى ثمن .

بدأ أفراد الفريق الثلاثة فى تثبيت أجهزتهم ، فى أماكن متفرقة من المنزل ، وقال خبير الأشعة :

ـ سنستخدم الموجات تحت الحمراء الفائقة ، مع جهاز فصل الموجات بالغ الدقة والحساسية ، بأعلى درجة ممكنة ، حتى نعلم ما حدث ، منذ دلف السيِّد (أمجد) إلى المكان ، وحتى لحظة اختفائه .

ألقى (هيثم) نظرة على ساعته ، وقال :

ـ لقد مرَّ وقت طويل على هذا .. هل تعتقد أنه مازالت هناك آثار حرارية متبقية لحركته .

أومأ الخبير برأسه ، قائلاً :

ـ الآثار الحرارية لا تنمحى بسهولة ، كل ما فى الأمر أنها تخفت إلى درجة يستحيل رصدها فى المعتاد ، ولكن الدقة والحساسية الشديدتين لهذا الجهاز ، الذى يُستخدم عمليًا لأوَّل مرة ، ستمكناته من رصد تلك الآثار الحرارية ، مهما بلغت درجة خفوتها .

سألته خبيرة الصوتيات :

ـ ولكنها امتزجت بعشرات الآثار والانبعاثات الحرارية الأخرى ، لكل من دخل المكان بعدها ، من رجال البحث الجنائى ، والتحقيقات ، ورجال المخابرات العامة ، وغيرهم .

تنهَّد ، قائلاً :

ـ سنبذل قصارى جهدنا لتنقيتها وفصلها .

انهمك كل منهم فى عمله ، فـى حين وقـف الرائـد (هيثم) صامتًا فى الركن ، حتى لايفسد ما يحدث ، فى حين راح عقله يحاول رصد ماحدث ، باستنتاج الموقف بأكمله ..

ولكن عقله لم يجد تفسيرًا منطقيًا واحدًا لهذا ..

كيف يمكن أن يختفى شخص ما ، داخل منزله المغلق من الداخل ، خلال دقائق معدودة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

استمرّ فى بحثه الذهنى ، حتى قال خبير الأشعة :

ـ مستعد للتنفيذ .

اعتدلت خبيرة الصوتيات بدورها ، وغمغمت :

ـ وأنا أيضًا .

اتجه (هيثم) نحوهما ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ ابدآ عملكما فورًا .

ضغط خبير الأشعة أزرار جهازه ، فراحت ترتسم على شاشته ظلالٌ حمراء شبه بشرية ، تتحرَّك هنا وهناك ، فسأله (هيثم) :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه الخبير ، وهو يضبط حساسية وذبذبة جهازه :

ـ إنها الانبعاثات الحرارية لرجال البحث الجنائى .. آخر من ترك المكان .

وعادت أصابعه تضغط أزرار الجهاز ، وهو يقول :

ـ سنزيد من حساسية الجهاز ، ونفصل الآثار الحرارية الأكثر قدمًا . تغيرَّت الصورة على الشاشة ، وظهرت ظلال حمراء أخرى ، أقل وضوحًا ، تفحص كل شبر من المنزل ، فقال الخبير ، وهو يعدِّل درجة الحساسية والفصل مرة أخرى :

ـ إنهم رجال الشرطة والمخابرات ، الذين أتوا ، فور حدوث الاختفاء .

قالت خبيرة الصوتيات فى اهتمام :

- يمكننى التقاط أصواتهم وأحاديثهم المختلطة هنا .

غمغم (هيثم) :

- الأصوات أيضًا تبقى ؟!

أجابه خبير الأشعة :

- كل صور الطاقة لا تفنى ، ولا تستحدث من عدم .. هذه قاعدة علمية صحيحة تمامًا(*) :

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تألّقت الشاشة بضوء أحمر مباغت قوى ، جعل خبير الأشعة يتراجع بحركة غريزية ، هاتفًا :

- يا إلهى !

هتف به الرائد (هيثم) :

- ما هذا ؟!

أجابته خبيرة الصوتيات فى حماسة :

(*) حقيقة ..

- إنه ذلك الضوء المبهر ، الذى رآه السائق والحارس الخاص من خارج المنزل .. لقد وصلنا إلى لحظة الاختفاء .. زد حساسية الجهاز قليلاً ، وضاعف قدرته على فصل الآثار الحرارية الضئيلة ، وسنصل إلى بداية الحدث .

نفذت أصابع خبير الأشعة اقتراحها بحركة آلية ، ثم تراجع ، وتطلّع مع الباقين فى اهتمام إلى شاشة جهازه ، فى حين راحت خبيرة الصوتيات تعدّل جهازها بدورها ، لتتوافق مع اللحظة نفسها ..

وعلى شاشة جهاز خبير الأشعة ، رأى الكل ظلّ السيّد (أمجد) ، وهو يلف إلى منزله ، ويتجه إلى زر الإضاءة ، ثم يستدير فى سرعة ، ويسحب مسدسه ، فهتفت خبيرة الصوتيات :

- انظروا .. لقد رأى شخصًا ما .

انعقد حاجبا خبير الأشعة ، وهو يقول :

- أى شخص .. الجهاز لايعكس أية انبعاثات حرارية أخرى سواه .

أشار (هيثم) بسبَّابته إلى البقعة ، التى يصوِّب إليها ظل (أمجد) مسدسه ، وقال :

ـ وماذا عن هذا المكان .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، انبعث من جهاز خبيرة الصوتيات صوت (أمجد) ، وهو يقول :

ـ أنت ؟!

ثم أعقبه صوت آخر يجيب :

ـ نعم .. هو أنا .

وغمر الشاشة ذلك الانبعاث الحرارى الفائق مرة أخرى ، فهتفت خبيرة الصوتيات فى انفعال :

ـ هل سمعتم ؟! هناك شخص آخر فى الحجرة .

بدا خبير الأشعة شديد التوتر ، وهو يراقب الشاشة ، التى لم يعد عليها أدنى أثر لانبعاث حرارى ، عقب ذلك الفائق ، وغمغم فى عصبية :

ـ شخص لايبعث جسده أى نوع من الأشعة ، وتسبَّب فى اختفاء السيِّد (أمجد) بغتة .

قال (هيثم) فى توتر :

ـ أى شخص هذا ؟!

هتفت خبيرة الصوتيات :

ـ شخص آلى .

صاح بها خبير الأشعة فى صرامة :

ـ لا تتسرَّعى .

ثم أشار بيده إلى البقعة ، التى كان (أمجد) يصوِّب إليها مسدسه ، مستطردًا فى توتر شديد :

ـ مازالت هناك وسائل أخرى للتحقُّق .

بدأ يتعامل مع جهازه مرة أخرى ، فى حين قال (هيثم) :

ـ إنه على حق .. افتراض أن خصمنا شخص آلى لا يتفق مع ما لدينا بالفعل ؛ فمن الواضح أن السيِّد

(أمجد) قد شاهد شخصًا ما .. شخصًا يعرفه .. بل ويدهشه أن يراه فى ذلك الوقت ، أو ذلك المكان.

سألته فى حيرة :

ـ شخص مثل من ؟!

هزّ كتفيه ، وتنهّد ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟!

التقى حاجبا خبير الأشعة ، وهو يقول :

ـ هناك ظل باهت للغاية .

التفت الكل إليه فى اهتمام ، وتساءل (هيثم) فى لهفة :

ـ أين ؟!

ضغط أزرار الجهاز ، لتكبير الجزء المراد على الشاشة ، وهو يقول :

ـ هنا .

بدأ يضاعف قوة ووضوح الصورة ، فرأى الجميع ظلاً واضحًا ، يبرز من الركن ، ويواجه السيّد (أمجد) ، ويصوِّب إليه شيئًا ما ..

وبكل انفعاله ، تساءل الرائد (هيثم) :

ـ ألا يمكنك توضيحه أكثر ؟!

ضغط خبير الأشعة أزرار جهازه مرة أخرى ، فامتلأت الشاشة بالانبعاث الحرارى الضئيل ، الناشئ من وجه ذلك الشخص ، وبدت أشبه بصورة معكوسة ، من صور الفن التجريدى ، مما جعل خبيرة الصوتيات تتساءل :

ـ ألا توجد وسيلة لتحديد ملامحه الحقيقية ؟!

صمت خبير الأشعة بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ الانبعاث الحرارى منه ضئيل للغاية ، كما لو أنه كائن بارد ، أو ...

بتر عبارته فى تردُّد ، فسأله (هيثم) :

ـ أو ماذا ؟!

ترددَ الشاب بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى خفوت ، وكأنما يخشى التصريح بما لديه :

ـ أو شبح .

اعتدل الكل فى دهشة ، وتساءلت خبيرة الأصوات فى حيرة :

ـ وهل تنبعث الحرارة من الأشباح ؟!

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ بعض الدارسين لمكنهم تصوير ما وصفوه بالأشباح ، وهذا يعنى أنه تنبعث منها حرارة ما(*) .

سألته مبهورة :

ـ أتعنى أن هذا شبح ؟!

(★) هناك باحثون جادون ، يدرسون كل حالة من حالات ظهور الأشباح ، فى أى مكان فى العالم ، ولديهم بعض البحوث والصور بالفعل ، وهذا يعتبر واحدًا من علوم ما فوق الطبيعيات ، بغض النظر عن إيماننا به من عدمه .

أشار الرائد (هيثم) بسبَّابته فى صرامة ، قائلاً :

ـ هذه ليست قضيتنا الآن .. إننا نتساءل : هل توجد وسيلة لمعرفة الملامح الحقيقية لهذا الوجه ، من خلال الانبعاث الحرارى الناجم عنه ؟!

صمت خبير الأشعة لحظة أخرى ، ثم أومأ برأسه ، مجيبًا :

ـ نعم .. يوجد برنامج خاص ، لإعادة بناء ملامح الوجه ، بناء على درجات الانبعاث الحرارى المختلفة عليه ، ولكنه يعطينا صورة تقريبية ، وليست دقيقة .

قال (هيثم) فى حزم :

ـ لو أنه لديك ، استخدمه فورًا .. أريد أن أرى كيف يبدو هذا الـ .. الشىء .

جرت أصابع خبير الأشعة على أزرار جهازه فى سرعة ، ثم تراجع ليراقب ، مع الآخرين ، تطوّر الصورة على الشاشة ..

وفى بطء ، راح البرنامج يعيد بناء ملامح وجه المعتدى ، الذى فاجأ السيّد (أمجد صبحى) فى منزله ، وأطلق فى وجهه تلك الطاقة ، التى أخفته من الوجود ..

ورويدًا رويدًا ، راحت ملامح الوجه تتضح ..

وتتضح ..

وتتضح ..

ثم ظهرت ملامحه التقريبية أخيرًا تملأ الشاشة ..

ومع ظهورها ، اتسعت عيون الكل فى ذهول ..

فالملامح ، التى حملتها شاشة الجهاز ، كانت لآخر شخص يمكن أن يتوقّعه مخلوق ، فى هذا المكان ..

آخر شخص .. على الإطلاق ..

* * *

تحركت (نشوى) بكل الهمة والنشاط ، لجمع أدواتها الخاصة ،وجهاز الكمبيوتر ، الذى طوّرته بنفسها ، استعدادًا للانتقال إلى مقر الفريق ، فى مبنى المخابرات العلمية ..

مشكلتها الوحيدة كانت فى البحث عمن يتولّى أمر الصغيرين .. (طارق) و(محمود) ، خلال انشغالها فى التعامل مع لغز أشباح المستقبل هذا .

ولقد احتاج هذا منها لنصف ساعة من الاتصالات ، قبل أن تقبل زميلة لها القيام بالمهمة ، حتى يتمّ استدعاء مربية محترفة ، فى الصباح التالى ..

وفى توتر ، غمغمت (نشوى) ، وهى تدسّ كل ما جمعته فى حقيبتها الخاصة :

ـ تُرى أين ذهبت (مشيرة) .. المرء لا يجدها أبدًا ، عندما يحتاج إليها .. كل هواتفها لا تجيب ، حتى هاتفها المحمول الخاص .

زفرت فى عصبية ، وألقت نظرة أخرى على الصغيرين ، اللذين غرقا فى نوم عميق ، قبل أن تلقى نظرة على ساعتها ، مغمغمة :

ـ لماذا تأخّرت (هناء) أيضًا ؟! لقد أخبرتها أن الأمر عاجل للغاية .

زفرت مرة أخرى ، وراحت تتحرك فى المكان فى توتر ..

ثم رن جرس الباب ، فهتفت فى لهفة :

ـ أخيرًا .

وبكل لهفتها ، حملت حقيبتها ، واندفعت نحو الباب ، مستطردة :

ـ أنا قادمة .

فتحت الباب فى سرعة ، ثم تجمَّدت كل ذرة فى كيانها ، وهى تحدِّق فى وجه ذلك الشاب المألوف ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا .. هل فاجأتك رؤيتى مرة أخرى .

ولم تنبس (نشوى) ببنت شفة ..

فقط اتسعت عيناها عن آخرهما ، ولم تصدِّق ما تراه ، وهى تحدِّق فى وجه الشاب بكل ذهول الدنيا ..

فظهوره الآن ، وفى هذه الظروف بالذات ، كان مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة وقوية ..

بكل المقاييس ..

★ ★ ★

« زوارق الطوربيد تنهار .. »

هتف مساعد القبطان بالعبارة ، بصوت منفعل مرتجف ، جعل القبطان يسأله فى توتر بالغ :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

أجابه بنفس المشاعر :

ـ الدوَّامة الرهيبة ابتلعت زورقين ، بكل بحارتهما ، والزوارق الأخرى تنهار ، وتنسحب إلى مركزها ، على الرغم من أن محركاتها تعمل بأقصى طاقتها ..

غمغم (رمزى) فى انفعال :

ـ رباه ! دوَّامة الضوء هذه ستبتلع كل شىء ، إن عاجلاً أو آجلاً .

استدار إليه القبطان ، ورمقه بنظرة حادة ، قبل أن يعود ببصره إلى مساعده ، قائلاً فى صرامة آمرة :

- فليتعاون بحّارة (فجر) ، لنقل أطقم زوارق الطوربيد إلى سطحنا ، وليتخلّ الكل عن الزوارق نفسها للدوّامة ، وبعدها سندير محركاتنا بأقصى سرعة ، فى محاولة للخروج من هنا .

تحرّك المساعد لتنفيذ الأمر ، ولكن القبطان استوقفه ، مضيفًا :

- وأرسل إشارة استغاثة إلى القاعدة .. نريد أكبر عدد ممكن من طوافات الإنقاذ .. أسرع بالله عليك .

انطلق المساعد لتنفيذ الأمر ، فى حين تساءل (رمزى) فى قلق شديد :

- هل تعتقد أن هذا سيفلح ؟!

أجابه القبطان فى صرامة متوترة :

- نتعشّم هذا .. فما نفعله هو كل ما لدينا .

كانت دوّامة الضوء تزداد سرعة وشدة ، وتتسع أكثر وأكثر ، حتى أضاءت المنطقة كلها بضوء بث الرعب فى القلوب ، وعلى الرغم من هذا ، راح بحارة المدمرة (فجر) يقاتلون فى استماتة ، لإنقاذ أطقم زوارق الطوربيد ، فى حين راحت الدوّامة تبتلع الزوارق نفسها بلا رحمة ..

ومع انتقال آخر بحارة زوارق الطوربيد إلى المدمرة ، هتف مساعد القبطان ، عبر جهاز الاتصال الداخلى :

- تم إنقاذ الجميع .

هتف القبطان عندئذ :

- المحركات بأقصى سرعة .

لم يكد يطلق هتافه ، حتى خبا الضوء بغتة ، وتوقّفت الدوّامة دفعة واحدة ، وراحت المياه تدور حول (فجر) ، التى غرقت فجأة فى ظلام الليل ..

وبكل ذهول ، غمغمت (سلوى) :

لقد اختفى الضوء .

انعقد حاجبا القبطان فى شدة ، وتطلَّع إلى شاشة جهازها بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى عصبية :

ـ ما يحدث ليس له معنى .. إنه نوع من العبث ..

واعتدل فى وقفته ، مضيفًا :

ـ العبث الشيطانى .

ارتفع صوت مساعده ، فى تلك اللحظة ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول فى توتر ، عكس مشاعر الجميع :

ـ المحركات تعمل ياقبطان ، ولكن الرجال لايفهمون ما يحدث حولهم .

قال القبطان فى صرامة :

ـ لن ننتظر حتى نفهم .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وأضاف بمنتهى الحزم :

ـ سنعود إلى القاعدة فورًا .

امتقع وجه (سلوى) ، وهى تقول فى ارتياع :

ـ وماذا عن (نور) و(أكرم) ؟!

صاح القبطان فى صرامة :

إلى القاعدة .

لم تكن صيحته قد اكتملت بعد ، أو بلغت مسامع طاقم التشغيل ، عندما سطع ذلك الضوء بغتة ..

ضوء قوى ، حتى إنه قد تم رصده من كل الدول ، التى تطلّ على البحر الأبيض المتوسّط بلا استثناء ..

ضوء خاطف سريع ، أشبه بضوء مصباح تصوير ، فى حجم ناطحة سحاب هائلة ..

ضوء سطع لحظة واحدة ، ثم خبا ، وعاد الظلام بعده يطبق على المنطقة كلها ..

ووسط الظلام ، كانت تقف المدمرة (فجر) شامخة قوية ، فى عرض البحر ، وإلى جوارها الغوّاصة النووية المنتشلة (ب . ن ـ ١٠٣) ..

ولكن طوافات الإنقاذ ، التى كانت فى طريقها إلى المكان ، بأقصى سرعة ممكنة ، كانت تنتظرها مفاجأة أخرى ..

أقوى مفاجأة ، منذ بدأ هذا الأمر كله ..

أقواها على الإطلاق .

* * *

انتهى الجزء الأوَّل بحمد اللَّه .

ويليه الجزء الثانى بإذن اللَّه .

(حرب الأشباح)

الأعماق

- ما سر الحادث الغامض، الذى أغرق الغواصة النووية، فى أعماق البحر؟!
- كيف يواجه الفريق العلمى أشباحا قاتلة، فى عرض البحر؟!
- تُرى هل ينجح (نور) وفريقه فى حل اللغز، أم ينتظرهم المصير نفسه، فى (الأعماق)؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع (نور) وفريقه.. من أجل الأرض..

العدد القادم

(حرب الأشباح)

د. نبيل فاروق

ملف المستقبل

سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

138

الثمن فى مصر ٢٥٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع الشروق التلميذ